
ہیرا مار

میرامار

اهداءات ٢٠٠١

ربان / حمدى عبد المنعم غالى

الإسكندرية

مطبوعات مكتبة مصر

ميرامار

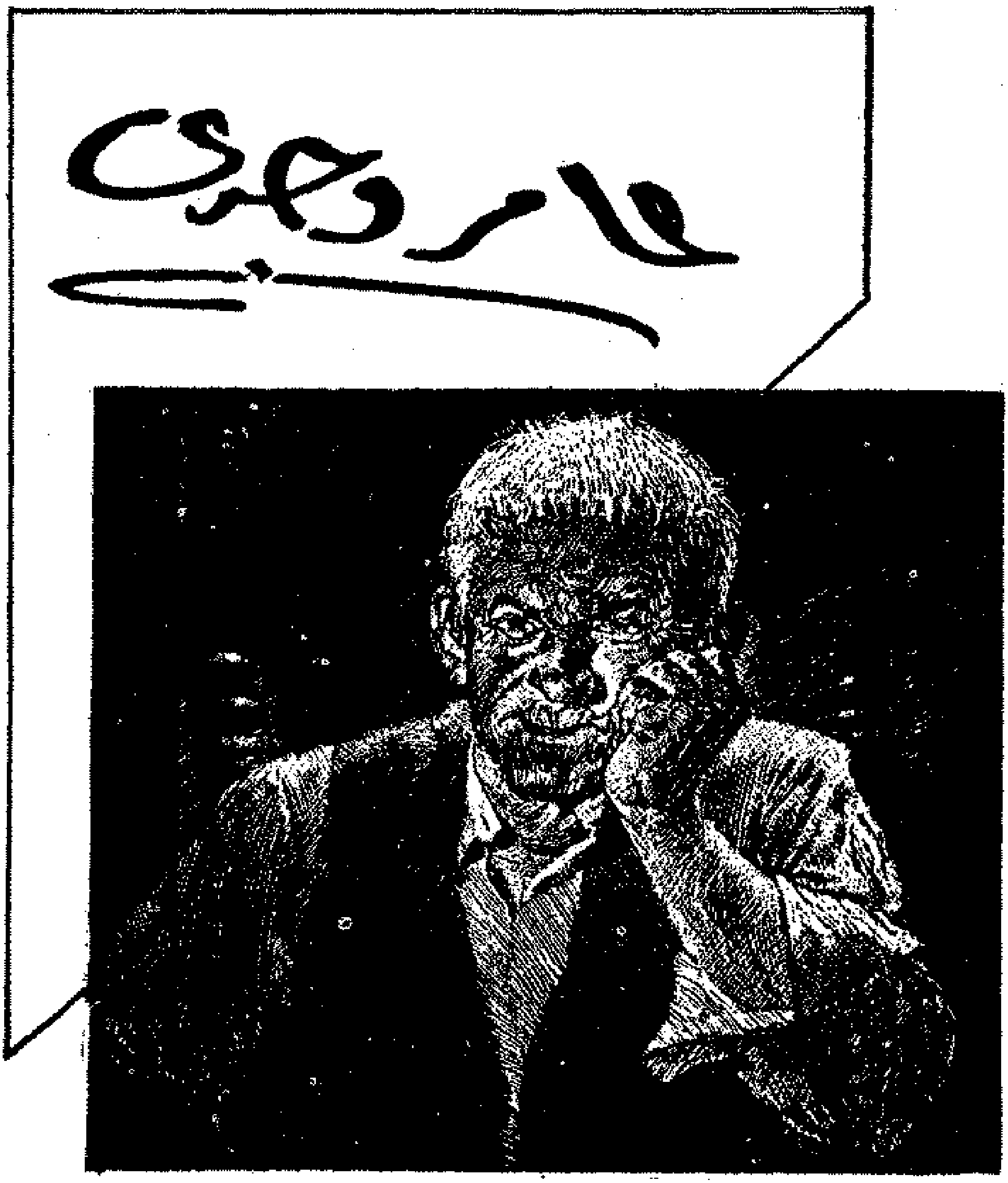
نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



١

عامر وجدى

الإسكندرية أخيرًا .

الإسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء ، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع .

* * *

العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم ، يستقر فى ذكراتك فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شىء فى لا مبالاة فلا يعرفك . كلحت الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة . وأطلت بجماع بنيانها على اللسان المغروس فى البحر الأبيض ، يجلل جنباته النخيل وأشجار البلخ ، ثم يمتد حتى طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق

الصيد . والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتى النحيلة المقوسة ، ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية .

ماريانا ، عزيزتى ماريانا ، أرجو أن تكونى بعقلك التاريخى ، كالظن وكالمأمول ، وإلا فعلىّ وعلى دنياى السلام . لم يبق إلا القليل ، والدنيا تتكرر فى صورة غريبة للعين الكليلة المظلمة بحاجب أبيض منجرد الشعر .

ها أنا أرجع إليك أخيرا يا إسكندرية .

* * *

ضغطت على جرس الشقة بالدور الرابع . فتحت شراعة الباب . فتحت شراعة الباب من وجه ماريانا . تغيرت كثيرا يا عزيزتى . ولم تعرفنى فى الطرقة المظلمة . أما بشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الذهبى فقد توهجا تحت ضوء ينتشر من نافذة بالداخل .

— بنسيون ميرامار ؟

— نعم يا فندم .

— أريد حجرة خالية .

الباب فتح . استقبلنى تمثال العذراء البرنزى . ثمة رائحة ما لعلى أفتقدها أحيانا . وقفنا نتبادل النظر . طويلة رشيقة ، الشعر ذهبى ، والصحة لا بأس بها ، ولكن بأعلى الظهر احديداب ، والشعر مصبوغ

حتما، واليد المعروقة وتجاعيد زاويتى الفم تشى بالعجز والكبر.إنك يا عزيزتى فى الخامسة والستين رغم أن الروعة لم تسحب منك جميع أذيالها . ولكن هل تتذكريننى ؟

نظرت باهتمام تجارى بادئ الأمر ، ودققت النظر ، ثم اختلجت العينان الزرقاوان . ها أنت تتذكرين ، وها أنا أسترد وجودى الضائع .

— أوه .. أنت !

— مدام !

تصافحنا بحرارة ، غلبها الانفعال فقهقهت ضاحكة . كنساء الأنفوشي قهقهت . وأطاحت بالوقار بضربة واحدة .

— يا خبر أبيض ، عامر بك ، أستاذ عامر ، ها .. ها ..

جلسنا على كنبة الأبنوس تحت العذراء وشبحانا يتخايلان فى زجاج صوان المكتب القائم للزينة .

نظرت فيما حولى وقلت :

— مدخل البنسيون هو هو لم يتغير .

فقالت محتجة ، ملوحة بيدها بفخار :

— بل تجدد وطلى مرات ، وعندك أشياء جديدة كالنجفة والبارفان والراديو ..

— إنى سعيد يا ماريانا ، الشكر لله على أنك فى صحة جيدة ..

ـــ وأنت أيضا يا مسيو عامر ، ألمس الخشب ..

ـــ عندى المصران الغليظ والبروستاتا ، نحمده على أى حال ..

ـــ أتجيء بعد زوال الصيف ؟

قلت باهتمام :

ـــ بل جئت للإقامة ، متى تلاقينا آخر مرة ؟.

ـــ منذ .. منذ .. أقلت للإقامة ؟

ـــ نعم يا عزيزتى ، رأيتك آخر مرة منذ حوالى عشرين عاما ..

ـــ واختفيت طيلة ذلك العمر !.

ـــ العمل ، والهموم ..

ـــ أراهن على أنك زرت الإسكندرية مرات ومرات فى تلك الأعوام ..

ـــ أحيانا ، ولكن وطأة العمل كانت شديدة ، وأنت أدرى بالصحافة ..

ـــ وأعرف أيضا جحود الرجال ..

ـــ ماريانا يا عزيزة ، أنت أنت الإسكندرية ..

ـــ تزوجت طبعا ..

ـــ كلا بعد !

تساءلت مقهقهة :

ــ ومتى تم النية وتقدم ؟

قلت بنبرة لم تخل من امتعاض :

ــ لا زواج ، لا أبناء ، اعتزلت العمل ، انتهيت يا ماريانا ..

شجعتنى بحركة من يدها فواصلت قائلا :

ــ عند ذاك نادتنى الإسكندرية ، مسقط رأسى ، ولما لم يكن لى فيها من قريب حى فقد قصدت الصديق الباق لى فى دنياى .

ــ جميل أن يجد الإنسان صديقا يقاسمه وحدته .

ــ أتذكرين أيام زمان ؟

قالت بصوت مأساوى :

ــ ذهبت بكل جميل .

ثم فى شبه غمغمة :

ــ ولكن علينا أن نعيش ..

وجاء وقت الحساب والمساومة . قالت إنه لم يعد لها من مورد إلا البنسيون ، ولذلك فهى ترحب بنزلاء فصل الشتاء ولو كانوا من الطلبة المزعجين ، وفى سبيل ذلك تستعين بالسماسرة وبعض خدم الفنادق . رددت ذلك بحزن عزيز قوم ذل . واختارت لى الحجرة رقم ٦ فى الجناح البعيد عن البحر . واتفقنا على أجرة معقولة تصلح لشهور العام عدا فصل الصيف ، على أن يكون لى حق الاستمرار فى الإقامة

صيفا إذا دفعت أجرة المصيفين . تم الاتفاق على كل شيء بما فيه الفطور الإجبارى ، وأثبتت المدام أنها تستطيع فى الوقت المناسب أن تستنقذ قلبها من الذكريات لتحسن المساومة والتدبير . وسألتنى عن حقائبى فأجابت بأنها فى أمانات المحطة . فقالت ضاحكة :

— لم تكن متأكدا من وجود ماريانا .

ثم واصلت بحماس :

— لتكن إقامة دائمة .

فنظرت إلى يدى التى ذكرتنى بيد مومياء فى المتحف المصرى .

* * *

لا تقل حجرتى فى شيء عن الحجرات المطلة على البحر . مستوفية لحاجتها من الأثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم . ولتبق الكتب فى صندوقها إلا ما ندر مما قد أراجعه فيمكن وضعه فوق الترابيزة أو التسريحة . لا يعيبها شيء إلا أن جوها يسبح فى مغيب دائم لأنها تطل على منور كبير يتسلق على جدرانه سلم الخدم حيث تهر القطط ويتناجى العاملون . وزرت الحجرات كلها . الوردية والبنفسجية والسماوية وكانت جميعها خالية . فى كل أقمت صيفا أو أكثر فى زمن مضى . ورغم اختفاء المرايا القديمة والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضضة والفنايير البلورية فما زالت مسحة أرستقراطية باهتة تعلق بالجدران

المورقة والأسقف العالية الموشاة بصور الملائكة .

قالت وهى تتنهد وقد لمحت لأول مرة طاقم أسنانها :

— كان بنسيون الساده !

فقلت مواسيا :

— سبحان من له الدوام .

فعادت تقول وهى تلوى بوزها :

— أكثر النزلاء شتاء من الطلبة ، وأما فى الصيف فأستقبل كل من هب ودب .

* * *

— عامر بك ، كن شفيعى عند دولة الباشا .

وقلت للباشا :

— يا دولة الزعيم ، ليس الرجل ذا كفاءة ممتازة ولكنه فقد ابنه فى الجهاد وهو جدير بأن يرشح عن الدائرة .

وافق على اقتراحى أسكنه الله أعز مكان فى جنته . كان يحبنى ويتابع مقالاتى باهتمام صادق . ومرة قال لى :

— أنت كلب الأمة الخافك .

كان رحمه الله ينطق القاف كافا . وسمع بها بعض الزملاء القدامى من رجال الحزب الوطنى فكانوا كلما رأونى صاح صائحهم : « أهلا

بكلب الأمة ».

لكنها كانت أيام المجد والجهاد والبطولة .

كان عامر وجدى شخصا فريدا ، له فى الرجاء جانب يرده الأصدقاء ، وفى الخوف جانب يتجنبه الأعداء .

* * *

فى الحجرة أتذكر أو أقرأ أو أستسلم للنعاس . وفى المدخل مجال سمر مع الراديو وماريانا . وإن شئت تنويعا فى التسلية ففى أسفل العمارة مقهى الميرامار . من البعيد جدا أن أعثر على أحد أعرفه أو يعرفنى ، ولا فى التريانون نفسه . ذهب الأصدقاء وذهب زمانهم . وإنى لأعرفك يا إسكندرية الشتاء . تخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة ، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر .

* * *

— ذلك العجوز الذى يخفى جسده المحنط تحت بدلة سوداء من عهد نوح .

وقال من عينه الزمن الهازل رئيسا للتحرير :

— زمن البلاغة ولى ، هل عندك عبارة تصلح لراكب طيارة ؟!

راكب طيارة !. أيها القره جوز المفعم شحما وغباء .. إنما خلق القلم لأصحاب العقول والأذواق لا للمجانين المعربدين من ضحايا

الملاهى والحانات .. ولكن قضى علينا طول العمر بالسير فى ركاب زملاء جدد فى المهنة ، لقنوا علمهم فى السيرك ثم اجتاحوا الصحافة ليلعبوا دور البهلوانات .

* * *

جلست على الفوتيل مرتديا الروب ، استسلمت ماريانا إلى مسند الكنبة الأبنوس تحت تمثال العذراء ، وانبعث من المحطة الأفرنجيـة موسيقى راقصة . وددت أن أسمع لونا آخر ولكنى تجنبت إزعاجها . استرخت جفونها كمن تحلم وحركت رأسها فى طرب كأيام زمان.

— كنا وما زلنا أصدقاء يا عزيزتى .

— طول العمر .

— لم نتبادل العشق ولا مرة !

ضحكت ضحكة عالية وقالت :

— ذوقك بلدى ، لا تنكر ..

— عدا مرة عابرة ، هل تذكرين ؟

ضحكت طويلا ثم قالت :

— نعم جئت مرة بخواجاية فاشترطت عليك أن تكتب فى السجل « عامر وجدى وحرمه ».

— وسبب آخر أبعدنى عنك، كنت حسناء فاخرة يحتكرك الوجهاء .

تهلل وجهها فى سعادة شاملة،ماريانا ، مهم عندى جدا أن يمتد بك العمر بعدى ولو يوما واحد حتى لا أضطر إلى البحث عن مأوى جديد. ماريانا إنك شاهد حى على أن التاريخ ليس وهما،من عهد الإمام إلى اليوم.

* * *

ـــ سيدى الأستاذ ، أستودعك الله .

رمقنى فى ضجر ، وهو يضيق بى كلما رآنى . قلت :

ـــ آن لى أن أعتزل .

قال وهو يدارى ارتياحه :

ـــ خسارة كبيرة ولكننى أرجو لك حياة طيبية .

انتهى كل شىء .

انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتى مقال من عصر الطائرة . أيها الأنذال ، أيها اللوطيون ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة ؟!

* * *

قلت وأنا أرنو إليها تحت تمثال العذراء :

ـــ ولا هيلانة فى زمانها !

ضحكت وقالت :

ـــ قبل أن تجىء كنت أجلس وحدى ، لا أنتظر أحدًا أعرفه . مهددة دائما بأزمة كلى .

— سلامتك ، ولكن أين أهلك ؟

وهى تتنهد :

— هاجر النساء والرجال .

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت :

— قلت أين أذهب ؟، لقد ولدت هنا ، لم أر أثينا أبدا فى حياتى ، ثم إن البنسيونات الصغيرة لن تؤمم على أى حال .

* * *

يعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مكان القانون . لا فض فوك . لقد أكرمك الله بتمثالين والموت .

* * *

— مصر وطنك والإسكندرية ليس كمثلها شيء .

عزف الهواء فى الخارج.والظلام يهبط خلسة.قامت فأشعلت من النجفة ثلاثة مصابيح فى أسفلها مثل عنقود العنب.عادت إلى مجلسها وهى تقول:

— كنت سيدة ، سيدة بكل معنى الكلمة .

— ما زلت سيدة يا عزيزتى .

— هل تشرب كأيام زمان ؟

— كأس واحدة عند العشاء ، طعامى خفيف جدا ، وذاك سر حيويتى رغم تقدم العمر .

آه يا مسيو عامر ، تقول إن الإسكندرية ليس كمثلها شيء ؟، كلا

لم تعد كما كانت على أيامنا ، الزبالة ترى الآن فى طرقاتها !.

قلت بإشفاق :

— عزيزتى ، كان لا بد أن تعود إلى أهلها.

قالت بحدة :

— ولكننا نحن الذين خلقناها .

— عزيزتى ماريانا ألا تشربين كأيام زمان ؟

— كلا ، ولا كأس واحدة ، عندى ضغط من الكلى .

ما أجمل أن نوضع فى متحف جنبا إلى جنب ، ولكن عدينى بألا تموتى قبلى :

— مسيو عامر ، قتلت الثورة الأولى زوجى الأول ، أما الثورة الثانية فجردتنى من مالى وأهلى ، لماذا ؟

— إنك مستورة والحمد لله ، ونحن أهلك ، والعالم لم يشهد أمثال هذه الحوادث كل شروق شمس .

— يا له من عالم !

— ألا نغير المحطة الإفرنجية ؟

— عدا ليلة أم كلثوم فلا محطة غيرها !

— أمرك يا عزيزتى .

— خبرنى لماذا يعذب الناس بعضهم البعض، ولماذا يتقدم بنا العمر ؟

ضحكت دون أن أبس .



خبرني لماذا يعذب الناس بعضهم البعض ، ولماذا يتقدم بنا العمر ؟

أجلت البصر فى الجدران المنقوش عليها تاريخها . هناك صورة الكابتن بقبعته العالية وشاربه الغزير فى البدلة العسكرية ، زوجها الأول ، ولعله حبيبها الأول والأخير ، الذى قتل فى ثورة ١٩١٩ . فى الجدار المقابل وفوق المكتبة صورة أمها العجوز ، كانت مدرسة . على مرمى البصر فى الصالة فيما وراء البارفان صورة الزوج الثانى ملك البطارخ وصاحب قصر الإبراهيمية ، أفلس ذات يوم فانتحر .

— متى فتحت البنسيون ؟

— قل متى اضطررت لفتحه من فضلك !

ثم أجابت :

— عام ١٩٢٥ .

عام محنة وكدر ..

* * *

— ها أنا شبه سجين فى بيتى وعرائض التأييد تزف إلى الملك .

— زيف وكذب يا دولة الزعيم .

— حسبت الثورة قد طهرت النفوس من ضعفها .

— الجو سليم والحمد لله .. سأسمع دولتكم مقالة الغد .

* * *

راحت تدلك بشرة وجهها بليمونة وهى تقول :

— كنت سيدة يا مسيو عامر ، أحب الحياة الحلوة والنور والفخامة

والأبهة والملابس والصالونات ، وكنت أهل على المدعوين كالشمس ..

ــ رأيت ذلك بعيني ..

ــ لكنك لم تر إلا صاحبة البنسيون .

ــ كانت تهل أيضا كالشمس ..

ــ وكان النزلاء من السادة ولكن لم يعزني ذلك عن تدهوري ..

ــ ما زلت سيدة بكل معنى الكلمة .

هزت رأسها ثم سألت :

ــ والأصدقاء القدامى ماذا حل بهم ؟

ــ حل بهم المكتوب عليهم .

ــ لماذا لم تتزوج يا مسيو عامر ؟

ــ سوء الحظ ، ليتنا أنجبنا ذرية .

ــ أوه .. كان كلا الزوجين عاقرا !

يغلب على الظن أنك أنت العاقر ، إنه أمر مؤسف إذ أننا لم نوجد إلا لكي ننجب .

* * *

ذلك البيت الكبير الذي تحول مع الأيام إلى فندق ، يراه السائر في خان جعفر كقلعة صغيرة ، وحوشه القديم الذي شق فيه طريق إلى خان الخليلي ، قد نقش في قلبي هو وما يكتنفه من بيوت قديمة والكلوب العتيق ، صورة تذكارية لنشوة الحب المشبوب المرتطم بخيبة الأمل .

العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان « لا » فتقضى فى تعصب أعمى على الحب الذى هبط إلى الدنيا قبل الأديان بمليون سنة .

ـــ مولاى ، إنى أنشد القرب منكم على سنة الله ورسوله .

صمت وبيننا فنجال قهوة لم يمس ، فقلت :

ـــ إنى صحفى ، ذو مال ، وابن شيخ كان خادما لمسجد سيدى أبى العباس المرسى .

قال :

ـــ رحمه الله كان من التقاة المؤمنين .

وقبض على المسبحة ثم استطرد :

ـــ يا بنى ، كنت منا ، جاورت الأزهر زمنا .

ذاك التاريخ متى ينسى !. قال :

ـــ ثم طردت من الأزهر ، أنت تذكر ..؟

ـــ مولاى،ذلك تاريخ قد انقضى،لأتفه الأسباب كان يحق الطرد، شاب هزه الشباب فاشترك فى تخت مطرب ذات ليلة ، أو طرح بعض أسئلة ببراءة ..

قال بامتعاض :

ـــ قضى عليه قوم عقلاء بتهمة شنيعة .

ـــ مولاى منذا يستطيع أن يقضى على إنسان بتهمة كالإلحاد ، ولا مطلع على الفؤاد إلا الله ؟

ـــ يستطيع ذلك من يسترشد بالله .

اللعنة . منذا يزعم أنه عرف الإيمان . قد تجلى الله للأنبياء ونحن أحوج منهم إلى ذاك التجلي . وعندما نتحسس موضعنا في البيت الكبير المسمى بالعالم فلن يصيبنا إلا الدوار .

* * *

لنحذر الكسل . لا بأس من تجربة المشي في الصباح المشمس . ما أحلى أيام الدفء في البالما والبجعة . ولو وجدت نفسك وحيدا بين أسر تعمر بالأجيال . الأب يطالع جريدة والأم تطرز رقعة والأبناء يلعبون . لو يخترع المخترعون للمعتزلين جهازا يبادلهم الحديث والسمر ، أو شخصا ألكترونيا يلاعبهم النرد ، أو يركب لهم عينا جديدة تولع مرة أخرى بنبات الأرض وألوان السماء .

وقد عشنا دهرا طويلا حافلا بالأحداث والأفكار ، نوينا أكثر من مرة أن نسجله في مذكرات ـــ كما فعل الصديق القديم أحمد شفيق باشا ـــ ولكن لم تصدق النية ثم تبددت بين إمهال وإرجاء . اليوم لم يبق من النية القديمة إلا الحسرة بعد أن وهنت اليد وضعفت الذاكرة واضمحلت القوة . ففي ذمة الله ذكريات الأزهر ، وصحبة الشيخ على محمود وزكريا أحمد وسيد درويش ، حزب الأمة ما أعجبني فيه وما نفرني منه ، الحزب الوطني بحماساته وحماقاته ، الوفد بثورته العالمية الخالدة ، الخلافات الحزبية التي قوقعتني في حياد بارد لا معنى له ،

الإخوان الذين لم أحبهم ، الشيوعيون الذين لم أفهمهم ، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيارات السابقة ، غراميانى وشارع محمد علىّ ، موقفى العنيد من الزواج . لو قيض لذكرياتى أن تكتب لكانت عجبا حقا .

زرت بحنان أثنيوس وباستوريدس وأنطونيادس . جلست وقتا فى بهو وندسور وسيسل ، ملتقى الباشوات والساسة الأجانب فى الزمن القديم ، وخير مجال لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث ، فلم أر إلا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين . رجعت ولى عند الله دعاءان : دعاء بأن يمن علىّ بحل مشكلة الإيمان ، ودعاء بالأ يصيبنى بمرض يقعدنى عن الحركة فلا أجد من يأخذ بيدى .

* * *

ما أجمل هذه الصورة النابضة بالشباب . قد وضعت على المقعد ركبة الساق اليمنى وأراحت الأخرى على الأرض ، ومالت بجذعها نحو مسند المقعد ملقية معصميها عليه ، واستدار وجهها ليواجه الكاميرا باسما معتزا بملاحته وقد انحسر ديكولتيه الفستان الكلاسيكى الفضفاض عن قاعدة العنق الطويل ونحر منبسط كالمرمر .

كانت قد ارتدت معطفها الأسود والإشارب الكحلى تأهبا لزيارة الطبيب ، وجلست تنتظر الوقت المناسب للذهاب . سألتها :

ــ أقلت إن الثورة قد جردتك من مالك ؟

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت :

ـــ ألم تسمع بكارثة الأسهم ؟

لعلها قرأت فى عينى تساؤلا ففطنت إلى ما يدور بخلدى فقالت :

ـــ ضاع ما ربحته أيام الحرب الثانية ، صدقنى لقد ربحته بشجاعتى إذ أصررت على البقاء فى الإسكندرية عندما هاجر الكثيرون إلى القاهرة والأرياف خوفا من غارات الألمان ، طليت النوافذ باللون الأزرق وأسدلت الستائر ، ودار الرقص على ضوء الشموع ، ولن تجد من يضاهى ضباط الإمبراطورية فى البذل والكرم .

وجدتنى وحيدا بعد ذهابها أنظر إلى عينى زوجها الأول وينظر إلى . ترى من قتلك وبأى سلاح ؟. وكم من جيلنا قتلت قبل أن تقتل ؟. جيلنا العتيد الذى فاق الأجيال جميعا فى غزارة ضحاياه .

* * *

الغناء الأفرنجى لا ينقطع . أقسى ما حكم الزمان به علىّ فى عزلتى . ماريانا أخذت حماما ساخنا عقب عودتها من عند الطبيب ، ها هى تجلس ملفوفة فى برنس أبيض وقد عقصت شعرها المصبوغ غارسة فيه عشرات المشابك المعدنية البيضاء . خفضت صوت الراديو إلى حد الهمس لتبدأ هى إذاعتها وقالت :

ـــ مسيو عامر .. لا شك أن لديك مالا وفيرا ؟

فسألتها بشىء من الحذر :

ـــ هل عندك مشروعات ؟

ـــ كلا ، ولكن فى مثل عمرك ـــ وعمرى أيضا مع الفـارق الكبير ـــ لا يتهددنا شىء مثل الفقر والمرض .

قلت والحذر لم يفارقنى بعد :

ـــ لقد عشت مستورا وأرجو أن أموت مستورا .

ـــ لا أذكر أنك كنت مسرفا قط .

ترددت قليلا ثم قلت :

ـــ أرجو أن يكون عمر المدخر من نقودى أطول من عمرى ..

لوحت بيدها باستهانة وقالت :

ـــ الطبيب شجعنى هذه المرة فوعدته بألا أحمل هما .

ـــ جميل ألا نحمل هما .

ـــ يجب أن نفرح ونلهو عندما تأتى ليلة رأس السنة .

قلت ضاحكا :

ـــ نعم ، على قدر ما تسمح قلوبنا .

راحت تهز رأسها فى تلذذ وتقول فى مناجاة :

ـــ يا ليالى رأس السنة ..

فقلت منفعلا بذكريات بعيدة :

ـــ كم أحبك الكبراء !

ـــ لم أعرف الحب إلا مرة واحدة ..

ثم أشارت إلى صورة الكابتن . وعادت تقول :

ـــ قتله طالب من الطلبة الذين أخدمهم اليوم !

ثم قالت بخيلاء :

ـــ كان بنسيون السادة !.. يعمل به طاه ومرمطون وسفرجى وغسالة وخادمان ، لا أحد يخدم به اليوم سوى غسالة أسبوعية !

ـــ كبراء كثيرون يغبطونك على ما أنت فيه .

ـــ أهذا عدل يا مسيو عامر ؟

ـــ هو على أى حال طبيعى يا مدام .

اربد وجهها فضحكت متوددا وملاطفا .

* * *

﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان﴾

مضيت أقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبى مذ كنت فى الأزهر . كنت غائصا فى مقعد كبير طارحا قدمى على وسادة . هطل المطر بغزارة فارتفع رنينه فوق درجات السلم المعدنى فى المنور .

﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾

ثمة أصوات تقتحم الصمت خارج الحجرة فى البنسيون . رفعت رأسى عن الكتاب وأنصت . ضيف أم نزيل جديد ؟. صوت ماريانا يرحب بحرارة لا تليق إلا بصديق حميم . وثمة ضحك أيضا . ثم وضحت

نبرة غليظة من صوت أجوف. ترى من القادم. الوقت بعد العصر بقليل. والمطر ينهل بشدة، والغيوم تريق فى الحجرة ظلمة كالليـل. ضغطت على زر الأباجورة حين لمع برق خاطف نضح به الشيش، وهزم الرعد.

﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾.

* * *

يميل إلى القصر والبدانة ، منتفخ الشدقين واللغد ، وله عينـان زرقاوان رغم سمرة بشرته ، ذو طابع أرستقراطى لا تخطئه العين وينم عنه صمته المتكبر إذا صمت وحركات رأسه ويديه المتزنة المرسومة بدقة إذا تكلم . قدمته المدام باسم « طلبة بك مرزوق » فى مجلس المساء ، ثم قالت تزيدنى معرفة به :

ـــ كان وكيلا لوزارة الأوقاف ومن الأعيان الكبار .

لم يكن عندى فى حاجة إلى تعريف. عرفته من بعيد بحكم مهنتى على عهد النضال السياسى والحزبى. كان من المنتمين إلى أحزاب السراى وبطبيعة الحال من أعداء الوفد. وتذكرت أيضا أنه وضع تحت الحراسة منذ عام أو أكثر وأنه جرد من موارده عدا القدر المعلوم. أما المدام فقد تبدت فى أحسن أحوالها مرحا وعاطفية، نوهت مرارا بصداقتها القديمة لطلبة بك. وبرز حماسها المتدفق عندما دعته بمحبها القديم.

وقال لى الرجل ونحن نتبادل الحديث :

ـــ قرأت لك كثيرا فيما مضى ..

فضحكت ضحكة ذات مغزى فضحك بدوره قائلا :

ـــ كنت تعطينى مثلا حيا لقوة البلاغة عندما تتصدى للدفاع عن باطل!

وضحك طويلا ولكننى لم أجادله. وقالت المدام تخاطبنى بشماتة:

ـــ طلبـــة بـــك تلميذ قديم للجزويت ، سنسمع الأغانى الأفرنجية معا ونتركك لتتعذب وحدك ..

ثم بسطت راحتيها فى ترحيب وقالت :

ـــ جاء ليقيم معنا ..

فرحبت به فعادت تقول فى رثاء :

ـــ كان يملك ألف فدان ، كان يلعب بالمال لعبا ..

هنا قال الرجل بامتعاض :

ـــ انقضى عهد اللعب ..

ـــ وأين كريمتك يا طلبة بك ؟

ـــ فى الكويت مع زوجها المقاول .

وكنت أعلم أن الحراسة قد فرضت عليه لشبهة تهريب بيد أنه فسر مأساته قائلا :

ـــ خسرت أموالى جميعا ثمنا لنكتة عابرة !

فسألته :

ـــ هل دعيت إلى تحقيق ؟

فقال بازدراء :

ـــ المسألة بكل بساطة أنهم كانوا فى حاجة إلى مالى ..

وكانت المرأة تنظر إليه بإمعان فقالت :

ـــ تغيرت كثيرا يا طلبة بك .

ابتسم فوه الصغير المطوق بشدقيه ثم قال :

ـــ أصابتنى جلطة كادت تقضى على ..

ثم بشىء من العزاء :

ـــ ولكننى أستطيع أن أشرب الويسكى فى حدود الاعتدال .

* * *

غمس الكروسان فى الشاى الممزوج باللبن ثم أكل بأناة من لم يألف الطاقم الجديد بعد . لم يكن على مائدة الإفطار سوانا وكانت الأيام القلائل الماضية قد قربت بيننا وأزالت حواجز الحذر فغلب الأنس بروح الجيل الواحد على الخلافات البالية ، وإن انطوى كل منا فى أعماقه على مزاج متفرد مناقض لصاحبه : ولكن تجىء أوقات يبرز فيها المزاج الثاوى فى الأعماق ليثير الغبار والتحديات . أجل قد سألنى بلا مناسبة :

ـــ أتدرى ما السبب وراء المصائب التى حلت بنا ؟

فتساءلت بدهشة :

ـــ أى مصائب تعنى ؟

ـــ أيها الثعلب ، إنك تعرف تماما ما أعنى .

ـــ ولكن لم تحل بى المصائب من أى نوع كان ..

رفع حاجبيه الأشيبين وقال :

ـــ لقد اغتيلت شعبيتكم كما اغتليت أموالنا ..

ـــ لعلك تذكر أنني خرجت من الوفد ، بل من الأحزاب جميعا ، منذ حادث ٤ فبراير ..

ـــ ولو .. ثمة لطمة قد أطاحت بكبرياء الجيل كله ..

فقلت زاهدا في الجدل :

ـــ بصرف النظر عن موقفي فإني مشوق إلى معرفة رأيك ..

قال بهدوء وازدراء :

ـــ يوجد سبب بعيد في طرف الحبل المشدود حول أعناقنا ، شخص لا يكاد يذكره أحد ..

ـــ من هو ؟

ـــ سعد زغلول !

لم أتمالك من الضحك فراح يقول بحدة :

ـــ أجل ، منذ دأب على إثارة الإحن بين الناس ، والتطاول على الملك ، وتملق الجماهير ، رمى في الأرض ببذرة خبيثة ، ما زلت تنمو وتتضخم كسرطان لا علاج له حتى قضى علينا ..

* * *

لم يكن بالبالما إلا آحاد مضىَ طلبة مرزوق ينظر إلى ماء النيل شبه الساكن في ترعة المحمودية على حين مددت ساقي واستلقيت على مسند

الكرسى كأنما أضطجع تحت شعاع الشمس النقى الدافئ . هاجرنا إلى أطراف الإسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار ، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام ، فآوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات ..

مهما يكن من غلو صاحبى وعصبيته فهو يستحق قدرا من الرثاء . عليه أن يبدأ حياة جديدة مريرة بعد الستين . إنه يغبط كريمته فى مهجرها ويرى أحلاما غريبة ، لا يطيق أن يسمع عن نظرية تبرر مأساته التاريخية . ويؤمن بأن الاعتداء على ماله إنما كان اعتداء على كون الله وسننه وحكمته .

ـــ كدت أعدل عن الإقامة فى البنسيون عندما علمت بوجودك ..

لم أصدق وسألته عن السبب :

ـــ وقع اختيارى على بنسيون ميرامار بأمل ألا أجد فيه إلا صاحبته الخواجاية .

فسألته عما بدد سوء ظنه بى :

ـــ فكرت ، ثم اقتنعت بأن التاريخ لم يعرف عميلا فوق الثمانين !

ضحكت طويلا ثم سألته :

ـــ ولم تخاف العملاء ؟

ـــ لا شىء فى الحقيقة غير أنى أروح عن نفسى أحيانا بالكلام .

ثم واصل حديثه بعصبية :

ـــ لم يعد لى مقام فى الريف ، وجو القاهرة يصر على إشعارى

بهوانى . عند ذاك فكرت فى عشيقتى القديمة ، وقلت لقد فقدت زوجها فى ثورة ومالها فى الثورة الأخرى ، وإذن فسوف نعزف لحنا واحدا .

وأثنى على صحتى رغم طعونى فى السن وجعل يغرينى على مصاحبته فى دور السينما والمقاهى الشتوية . ثم تساءل :

ـــ لماذا عدل الله عن سياسة القوة ؟

لم أدرك مرماه فقال متبسطا فى الشرح :

ـــ أعنى الطوفان والرياح وغيرها .

فسألته بدورى :

ـــ أتحسب أن الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممن أهلكتهم قنبلة هيروشيما ؟

فلوح بيده ساخطا وقال :

ـــ ردد دعايات الشيوعيين أيها الثعلب !، إن أكبر خطأ فى حق البشرية قد وقع لدى تردد أمريكا فى الاستيلاء على سلطان العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرية !

ـــ خبرنى هل تجدد غرامياتك مع ماريانا ؟

ضحك عاليا وقال :

ـــ يا لها من فكرة جنونية،إنى شيخ هدمه العمر والسياسة وهيهات أن تحركنى إلا المعجزات،وأما هى فلم يبق لها من الأنوثة إلا ألوانها المجردة . .

وضحك مرة أخرى ثم قال :

ـــ وأنت هل نسيت تاريخك ؟، لقد قرأت عن فضائحك فى مجلة الكشكول ، عن جريك وراء الملاءات اللف بشارع محمد على ..

ضحكت بلا تعليق فتساءل :

ـــ هل رجعت أخيرا إلى الدين ؟

ـــ وأنت ؟.. يخيل إلى أحيانا أنك لا تؤمن بشيء ؟..

فقال بحنق :

ـــ كيف لا أومن بالله وأنا أحترق فى جحيمه ؟!

* * *

ـــ لقد خلق أمثالك للجحيم ، لن يبارك الله لك فى شيء ، اخرج مطرودا من هذا المكان الطاهر ، كما طرد إبليس من رحمة الله .

* * *

دقت الساعة الكبيرة فى الصالة معلنة انتصاف الليل . تجاوبت أركان المنور بصفير هواء قوى . أقعدنى الكسل والدفء وأنا غائص فى المقعد الكبير عن القيام إلى الفراش . وثقلت على وحدتى بعد أن انفردت بى فى الحجرة الخالية فقلت لنفسى ما جدوى الندم بعد الثمانين .

وإذا بالباب يفتح دون استئذان ويقف طلبة مرزوق على عتبته قائلا :

ـــ معذرة ، أدركت من ضوء الحجرة أنك لم تنم..

نظرت نحوه باستغراب . لقد شرب الليلة أكثر مما يشرب عادة . وسألنى متهكما وحركات رأسه تواكب نبرته :

— أتعلم كم كان يكلفنى فى الشهر الواحد الدواء والفيتامينات والهرمونات والروائح والدهون وخلافه ؟!

انتظرت أن يتكلم ولكنه أغمض عينيه كأن الجهد أرهقه ، ثم تراجع فأغلق الباب ومضى .

* * *

السرادق مكتظ بالخلق ، ساحة المولد كيوم الحشر ، والصواريخ تنطلق فى الفضاء . انشق النور وانعدم الظلام لمولد أحمد . وتهادت الرولزرويس حتى وقفت أمام السرادق . هبط منها طلبة مرزوق فخف لاستقباله أقوام وأقوام من السادة الدمرداشية . طريقة الرجل الذى جمع فى قلبه بين الرسول والمندوب السامى . ولمحنى صاحب الرولزرويس فأعرض عنى فى كبرياء . وقيل ليلتها إنك جئت ثملا كما جئتنى الليلة . ودعى سيد المطربين إلى وسط السرادق فأنشد « يا سماء ما عليك سماء ». وفى الهزيع الأخير من الليل غنى « أحب اشوفك » فأطاح بعقول المريدين . متى كانت تلك الليلة العجيبة ؟. على التحديد لا أذكر ولكنها حتما سبقت وفاة الرجل الجليل وإلا ما صفا لى الطرب .

* * *

كنت أجلس فى المدخل ولا أحد معى فى البنسيون عندما دق الجرس . فتحت الشراعة على طريقة المدام فرأيت أمامى وجها انشرح لمرآه صدرى . من النظرة الأولى انشرح له صدرى . وجه أسمر لفلاحة

مطوقة الرأس والوجه بطرحة سوداء : أصيلة الملامح مؤثرة جدا بنظرة عينيها الحلوة المترقبة :

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا زهرة !

قالتها ببراءة وثقة كأنما تنطق باسم علم من الأعلام. سألتها وأنا أبتسم :

ـــ ماذا تريدين يا زهرة ؟

ـــ الست ماريانا .

فتحت لها الباب فدخلت حاملة بقجة صغيرة . نظرت فيما حولها ثم سألت :

ـــ أين الست ؟

ـــ ستجىء بعد قليل ، اجلسى .

جلست على مقعد واضعة البقجة على حجرها فعدت إلى مجلسى فى نشاط جديد . جعلت أنظر إليها ، إلى تكوينها القوى الرشيق ، وملاحتها الفائقة ، وشبابها الغض ، وأنا فى غاية من الارتياح . واستسلمت لرغبة فى محادثتها فقلت :

ـــ قلت إن اسمك زهرة ؟

ـــ زهرة سلامة .

ـــ من أين يا زهرة ؟

ـــ من الزيادية بحيرة .

ـــ على ميعاد مع المدام ؟.

ـــ لا ..

ـــ إذن ؟..

ـــ جئت لأقابلها .

ـــ تعرفك طبعا ؟

ـــ نعم .

تمليت جمالها وشبابها بارتياح لم أشعر بمثله من دهر ثم عدت أسألها :

ـــ هل تعيشين فى الإسكندرية من زمن طويل ؟

ـــ لم أعش فى الإسكندرية ولكن زرتها مرارا مع المرحوم أبى .

ـــ وكيف عرفت المدام ؟

ـــ كان أبى يجيئها بالجبن والزبد والسمن والدجاج ، وكنت أجىء معه أحيانا .

ـــ فهمت ، تنوين يا زهرة أن تحلى محل أبيك .

ـــ لا ..

حولت عينيها إلى البارفان كأنما لتتفادى من المزيد فاحترمت سرها وازددت لها حبا . وبكل حنان دعوت لها فى سرى أن يحفظها الله .

* * *

قلت وأنا أقبل يدها المعروقة المدبوغة « ببركة دعواتك أصبحت رجلا ولا كل الرجال ، هلمى معى إلى القاهرة » فقالت وهى تتطلع

تحوى بحنان : « فليزدك الله من خيره وبركاته ، أما أنا فلن أغادر البيت ، إنه حياتى وعمرى » .

بيت نحيل ، مقشر الجدران ، تلطمه الرياح وتستقر أملاح البحر على أحجاره ، وتلفحه روائح السمك المكدس على شاطئ الأنفوشى .

قلت : « لكنك تعيشين هنا وحدك » .

فقالت : « معى خالق الليل والنهار ».

* * *

دق الجرس فقامت زهرة ففتحت الباب . نظرت إليها المدام بدهشة ثم هتفت :

— زهرة !.. غير معقول ..

لثمت الفتاة يدها مشرقة الوجه لحرارة الترحيب .

— جميل أو أراك ، الله يرحم والدك ، تزوجت يا زهرة .

— كلا .

— غير معقول !.

وضحكت عاليا ثم التفتت إلى قائلة :

— زهرة بنت رجل طيب يا مسيو عامر ..

ومضتا معا إلى الداخل حين جاش صدرى بحنان وأبوة .

* * *

ولما جمعنا مجلس الليل — أنا وطلبة وماريانا — قالت المدام :



زهرة بنت رجل طيب يا مسيو عامر

ــ أخيرا ارتحت .

وسكتت لحظة ثم واصلت :

ــ زهرة ستعمل عندى .

اجتاحنى إحساس غريب بالفرح والضيق معا ثم سألت :

ــ أجاءت لتعمل خادمة ؟.

ــ نعم ، لم لا ، ستكون على أى حال فى مركز ممتاز .

ــ ولكن ما ..

ــ كانت تستأجر نصف فدان وتزرعة بنفسها ، ما رأيك فى ذلك ؟

ــ جميل ولكن لم تركت أرضها ؟

نظرت إلى مليا ثم قالت :

ــ لقد هربت .

ــ هربت !.

قال طلبة ساخرا :

ــ اعتبروها إقطاعية !.

ــ أراد جدها أن يزوجها من عجوز مثله لتخدمه ، والباقى معروف ..

قلت بحزن :

ــ حدث خطير لا تهضمه القرية .

ــ لا أحد لها بعد جدها إلا شقيقتها الكبرى وزوجها ..

ــ وإذا عرفوا أنها هنا ؟

— محتمل ولكن ماذا يهم ؟

— ألا تخشين ..

— ليست صغيرة،وما فعلت إلا أننى آويتها وأعطيت لها عملا شريفا..

ثم بإصرار :

— مسيو عامر . لن أتخلى عنها ..

* * *

لن أتخلى عن واجبى ما دام فىّ عرق ينبض ، ولتفعل بنا القوة ما تشاء .

* * *

وراحت تعلمها وزهرة تتعلم بسرعة فائقة وماريانا تقول بسرور :

— البنت مدهشة يا عامر بك ، مدهشة ، ذكية وقوية ، من مرة واحدة تعرف المطلوب ، أنا بختى عال .

وقالت لى فى مرة أخرى :

— ما رأيك ، خمسة جنيهات غير الأكل واللبس .

أعلنت ارتياحى ثم قلت برجاء :

— لا تلبسيها بطريقة عصرية !

— أتريدها أن تلبس كالفلاحات ؟

— عزيزتى ، البنت جميلة ، فكرى فى الأمر .

— أنا عينى مفتوحة دائما ، والبنت طيبة يا مسيو عامر .

هكذا خطرت زهرة فى فستان من الكستور فصل على جسمها الرشيق ليبرز محاسنه، ربما لأول مرة، بعد طول اختفاء تحت الجلباب الفضفاض المسترسل حتى الكعبين، ومشط شعرها جيدا بعد أن غسل بالجاز ثم فرق فى وسط الدماغ ليجتمع فى ضفيرتين انسابتا فى امتلاء وراء الأذنين.

ورآها طلبة مرزوق فنظر إليها متفرسا ثم مال نحوى بعد ذهابها وهمس قائلا :

— سنشاهدها فى الصيف القادم فى الجنفواز أو مونت كارلو .

فقلت باستياء :

— فال الله ولا فالك يا شيخ !

ثم مر بها وهو فى طريقه إلى الخارج فسألها مداعبا :

— هل فيك عرق أجنبى يا زهرة ؟.

شيعته بنظرة متسائلة . واضح أنها لن تستلطفه . ونظرت نحوى فقلت لها :

— إنه يداعبك ، فاعتبرى قوله نوعا من الثناء ..

ثم قلت باسما :

— وأنا أيضا من عشاقك يا زهرة ..

فابتسمت ابتسامة صافية فلم أشك فى أنها تبادلنى مـودة بمودة وسررت بذلك جدا . وكانت المدام تدعوها — بعد انتهاء العمل — للجلوس معنا فى المدخل حول الراديو ، فكانت تختار مقعدا بعيدا بعض

الشيء عنا وعلى كثب من البارفان وتتابع أحاديثنا برغبة جادة فى الاستطلاع والفهم ، واستأنستها بمودتى فصرنا صديقين ، وتبادلنا الكلام كثيرا فى الفرص المتاحة .

وقصت علينا ذات ليلة قصتها بنفسها وهى تظن أننا نسمعها لأول مرة . ثم قالت تعليقا على بعض ظروفها :

ــ أراد زوج أختى أن يأكلنى فزرعت أرضى بنفسى !

ــ ألم يشق عليك ذلك يا زهرة ؟

ــ كلا ، إنى قوية بحمد الله ، لم يغلبنى أحد فى المعاملة ، لا فى الحقل ولا فى السوق .

فقال طلبة مرزوق ضاحكا :

ــ ولكن الرجال يهتمون بأمور أخرى أيضا ؟.

فقالت بتحد لطيف :

ــ أكون رجلا عند الضرورة ..

فآمنت على قولها بحماس . وقالت المدام :

ــ زهرة ليست غشيمة ، كانت تصحب أباها فى جولاته ، كان يحبها جدا ..

فقالت بحزن :

ــ وكنت أحبه أكثر من عينى ، أما جدى فلا يفكر إلا فى الانتفاع من ورائى ..

ولكن طلبة عاد إلى معاكستها قائلا :

ـــ لو كان باستطاعتك أن تكونى رجلا فلم اضطررت إلى الهرب ؟.

فقلت مدفعا عنها :

ـــ يا طلبة بلك ، أنت أدرى بجو القرى ، وقداسة الأجـداد ، والتقاليد الرهيبة ، كان عليها أن تبقى لتصير زوجة زائفة أو أن تهرب ..

رمقتنى بامتنان ، ثم قالت بأسف :

ـــ تركت أرضى ..

وإذا بطلبة يقول :

ـــ سيقولون إنك هربت لكيت وكيت ..

حدجته بنظرة غاضبة ، واكفهر وجهها كأنما اتخذ من ماء الفيضان بشرة جديدة ، وفردت سبابتها والوسطى وهى تقول بخشونة :

ـــ أغرزهما فى عين من يتقول علىّ بالباطل ..

هتفت المدام :

ـــ زهرة ألا تفرقين بين الجد والدعابة ؟

وقلت بدورى ملاطفا وقد أخذت بغضبتها :

ـــ إنه يداعبك يا زهرة ..

وملت نحوه متسائلا :

ـــ أين لباقتك يا عزيزى ؟

فأجابنى باستهانة :

— موضوعة تحت الحراسة !

* * *

عيناها عسليتان، وجنتاها دسمتان موردتان ، فى ذقنها غمازة . بالكاد حفيدتى الصغرى ، أما جدتها المحتملة فقد مرت فى لمح البصر . لم يدركها حب ولا زواج . المستحيل تذكر ملامحها . بيرجوان والدرب الأحمر وسيدى أبو السعود طبيب الجراح .

* * *

— حتى متى تبقى هنا يا سيدى ؟

كانت تجيئنى فى حجرتى بقهوة العصر فأستبقيها حتى أفرغ رغبة فى حديثها .

— إنى مقيم هنا يا زهرة .

— وأسرتك ؟

قلت ضاحكا :

— لا أحد لى فى الدنيا سواك .

فضحكت من أعماق قلبها فى مرح.يدها صغيرة صلبة خشنة الأنامل.قدماها مفلطحتان كبيرتان.أما الجسم والوجه فسبحان الله العظيم.

ومرة همست لى :

— إنه ثقيل الدم !

قلت لها مستعطفا :

— إنه رجل كبير سيىء الحظ ، وبه مرض ..

— يظن نفسه باشا وقد مضى عهد الباشوات .

وقع قولها من أذنى موقعا غريبا فدار رأسى فى دائرة سحرية قطرها قرن كامل .

* * *

— يأبون زيارة وزير الحقانية لأنه أفندى ..

— يا دولة الزعيم ، لرجل القضاء مهابتهم !

— إنى فلاح قبل كل شىء أما هم فشراكسة ..

ثم ماضيا فى تصميم :

— اسمع ، طالما عيرونى بالغوغاء ففاخرتهم بأننى زعيم الرعاع ذوى الجلاليب الزرق ، اسمع . لا بد أن تتم الزيارة .. وبكل احترام ..

* * *

حتى أنواع الويسكى حفظت أسماءها وهى تبتاعها من بقالة الهاى لايف . وكانت تقول لى :

— كلما طلبتها رمقتنى الأبصار وضحكت الوجوه ..

فرددت فى نفسى « ليحفظك الله » .

* * *

يا لها من ضوضاء . الأصوات ليست بالغريبة ولكنها تصرخ محتدمة . ماذا يجرى خارج الغرفة ؟. غادرت الفراش والساعة تدق

الخامسة مساء . تلفعت بالروب ومضيت إلى الخارج . لمحت طلبة وهو يختفى فى حجرته ضاربا كفا على كف . رأيت زهرة جالسة مقطبة وشبه باكية مقوسة الظهر والمدام واقفة أمامها فى غاية من الكدر . ماذا هناك ؟. قالت المدام لما رأتنى .

ـــ زهرة سيئة الظن جدا يا عامر بك !

تشجعت زهرة بحضورى فقالت بخشونة :

ـــ أراد أن أدلكه !

بادرتها المدام :

ـــ إنك لا تفهمين ، إنه مريض ، كلنا نعلم ذلك ، فى حاجة إلى تدليك ، كان يسافر كل سنة إلى أوروبا ، وما دمت لا تريدين فلن يرغمك أحد ..

قالت زهرة بحدة :

ـــ لم أسمع عن ذلك من قبل ، دخلت حجرته بنية سليمة فرأيته منطرحا على وجهه شبه عار !

ـــ كفى يا زهرة ، الرجل كبير ، أكبر من والدك ، ليس إلا سوء تفاهم ، قومى فاغسلى وجهك وانسى الأمر كله ..

جلسنا على كنبة من الآبنوس وحدنا.الهواء يصرخ فى الخارج والنوافذ تصطك . غشانا صمت ثقيل مرهق فقالت المدام :

ـــ هو الذى طلب ، وأنا لا أشك فى نيته ..

تمتمت بلهجة ذات معنى :

ـــ ماريانا !

تساءلت بحدة :

ـــ أتشك فى نيته ؟

ـــ العبث لا حدود له !

ـــ لكنه شيخ كما تعلم ؟

ـــ وللشيوخ عبثهم أيضا !

ـــ قلت إنها أولى بالنقود من أخرى غريبة !

ـــ إنها فلاحة ..

ثم ذكرتها قائلا :

ـــ وقد وضعتها فى حماك !

* * *

وجاء طلبة فاتخذ مجلسه فى بساطة البرىء وانطلاقته . وراح يقول :

ـــ الفلاح يعيش فلاحا ويموت فلاحا ..

فقلت بضيق :

ـــ دعها تعيش وتموت على ما فطرها الله عليه ..

قال بامتعاض :

ـــ قطة متوحشة ، لا يغرك منظرها فى الفستان ، وجاكتة المدام الرمادية ، إنها قطة متوحشة ..

إنى حزين من أجلك يا زهرة . أدرك الآن مدى وحدتك . وليس البنسيون بالمكان المناسب لك . والمدام — حاميتك — لن تتورع عند أول فرصة عن اتهام براءتك ..

وتساءل طلبة مرزوق بعد الكأس الأولى قائلا :

— منذا يحدثنى عن حكمة الله فى خلقه ؟

فهتفت ماريانا مرحبة بتغيير مجرى الحديث :

— حاسب أن تكفر يا طلبة بك !

فأشار إلى تمثال العذراء وسأل :

— خبرينى يا سيدتى لماذا رضى الله بأن يصلب ابنه ؟

فقالت بجد :

— لولا ذلك لحلت بنا اللعنة !

فضحك طويلا ثم قال :

— ألم تحل بنا اللعنة بعد ؟

وكان يسترق إلى النظر وأنا أتجاهله حتى لكزنى بكوعه وهو يقول :

— أيها الثعلب ، عليك أن تصالحنى مع زهرة ..

* * *

نزيل جديد ؟

شىء فى وجهه الأسمر الواضح الملامح يشى بأنه فلاح معتدل القامة فى غير امتلاء ، سمرته أميل إلى العمق ، له نظرة قوية ، فى الثلاثين من

عمره . دعته المدام إلى مقعد من مائدة الإفطار وهى تقول :

ـ مسيو سرحان البحيرى .

ثم قدمتنا إليه ، وطلبت منه أن يزيدنا تعريفا بنفسه إن شاء فقال بصوت قوى ذى طعم ريفى متمدن :

ـ وكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل .

وعقب خروجه ضحكت المدام معلنة عن سرورها وقالت :

ـ نزيل مقيم أيضا وبنفس الشروط !

ولم يكد يمضى أسبوع حتى جاء حسنى علام للإقامة أيضا : وهو شاب يصغر سرحان بقليل ، ربعة أبيض اللون ، ذو بنيان متين يليق بمصارع ، وقالت المدام إنه من أعيان طنطا .

وأخيرًا جاء منصور باهى مذيع بمحطة الإسكندرية ، فى الخامسة والعشرين ، وقد أثر فىّ وجهه الرقيق وقسماته الصغيرة الجميلة ، أجل فيه شيء من الطفولة ولا أقول الأنوثة ولكن بدا من أول الأمر أنه يعيش فى ذاته عسير الألفة .

إذن قد شمل العمران الحجرات جميعا وطارت المدام من الفرح . وتوثب قلبى للترحيب والتعارف ولإشباع عواطفه المتعطشة . وقلت للمدام :

ـ شباب مرح جميل فلعلهم لا يزهدون فى مجلسنا العجوز !

فقالت بسرور :

ـــ وليسوا طلبة على أى حال .

لم يتجاوز التعارف حدوده الرسمية ، حتى اقتربت الليلة الأولى لموسم أم كلثوم فعلمت أنهم سيسهرون معنا حول الراديو وأنها ستكون ليلة طيبة عامرة بالشباب والغناء .

* * *

أعدوا فيما بينهم عشاء من الشواء وشرابا من الويسكى. . جلسنا حول الراديو وزهرة تقوم على خدمتنا كنحلة . الليلة باردة ولكنها صامتة لم نسمع للرياح فيها صوتا وقالت زهرة : إن السماء صافية وإنك تستطيع أن تعد النجوم . ودارت الكئوس وزهرة جالسة عند البارفان تراقبنا بنظرة باسمة . عانى طلبة مرزوق وحده قلقا خفيا . قال لى قبل السهر بأيام : « سينقلب البنسيون جحيما » . إنه يخاف الأغراب ، ولم يشك فى أنهم يحيطون بتاريخه وظروف حراسته علما ، إن لم يكن عن طريق الصحف فعن سبيل المذيع منصور باهى .

وكانت المدام كعادتها قد استخلصت منهم المعلومات الخليقة بأن تشبع تطفلها الأبدى :

ـــ مسيو سرحان البحيرى من أسرة البحيرى !

لم أسمع عن الأسرة من قبل ولا بدا على طلبة مزروق نفسه أنه سمع بها .

ـــ وقد دله صديق على البنسيون لما علم بضيقه بشقته القديمة . .

وحسنى علام ؟

— مسيو حسنى من أسرة علام بطنطا ..

وخيل إلى أن طلبة يعرفها ولكنه تجنب الحديث ما أمكنه .

— وهو يملك مائة فدان ..

قالتها بزهو كأنها هى المالكة .

— لم تزد و لم تنقص فالثورة لم تمسه ..

وتهلل وجهها كأنما النجاة كانت لها .

— وقد جاء الإسكندرية لينشىء لنفسه عملا ..

هنا سأله سرحان :

— و لم لا تزرع أرضك ؟

فقال باقتضاب :

— مؤجرة .

فتفحصه سرحان بنظرة مداعبة ثم قال :

— قل إنك لم تزرع فى حياتك قيراطا ..

وضحك ثلاثتهم ولكن برزت ضحكة حسنى المجلجلة .

ثم أشارت المدام إلى منصور باهى وقالت :

— أما هذا فهو شقيق صديق قديم يعتبر من أحسن ضباط البوليس الذين عرفتهم الإسكندرية ..

خيل إلى أن أشداق طلبة قد ازدادت انتفاخا .

— وقد أشار عليه لدى نقله من الإسكندرية قريبا بالإقامة فى بنسيون ميرامار ..

مال طلبة نحوى منتهزا فرصة انشغالهم بالشراب وهمس :

— وقعنا فى وكر للجواسيس !

فهمست له بدورى :

— لقد ولت أيام الوحشية فلا تكن سخيفا .

وإذا بالسياسة تفرقع فى السمر . وبدا سرحان متحمسا بلا حدود :

— لقد خلق الريف خلقا جديدا ..

كان صوته يتغير تبعا لامتلائه بالطعام أو خلوه منه :

— كذلك العمال ، إنى أعيش بينهم فى الشركة فتعالوا وانظروا بأنفسكم .

وسأله منصور باهى — إنه أميلهم للصمت وقد ينفجر ضاحكا كأنه شخص آخر ..

— أتشتغل بالسياسة بالفعل ؟

— من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى ، واليوم فأنا عضو بلجنة العشرين وعضو بمجلس الإدارة المنتخب عن الموظفين ..

— ألم تشتغل بالسياسة من قبل ؟

— كلا ..

وقال حسنى علام :

— إنى مقتنع تماما بالثورة . لذلك أعتبر ثائرا على طبقتى التى جاءت الثورة لتصفيتها ..

فقال منصور باهى :

— على أى حال فالثورة لم تمسك .

— ليس ذاك هو السبب ، فحتى فقراء طبقتنا قد لا يحبون الثورة ..

وأخيرا قال منصور باهى :

— إنى مقتنع تماما بأن الثورة كانت أرفق بأعدائها مما يجب !

والظاهر أن طلبة مرزوق ظن أنه إن لـزم الصمت فقـد يضره الصمت ، لذلك قال :

— لقد حاق بى ضرر بالغ فأكون منافقا لو قلت إننى لم أتألم ، ولكننى أكون أنانيا كذلك لو أنكرت أن ما عمل هو ما كان ينبغى أن يعمل ..

* * *

عندما آويت إلى حجرتى قبيل الفجر لحق بى فسألنى عن رأيى فيما قال فأجبته بصوت غريب بعد أن نزعت طاقم أسنانى :

— رائع ..

— أتظن أن أحدا صدقنى ؟

— لا يهم ..

— يحسن بى أن أبحث عن مقام آخر ..

— لا تكن سخيفا .

— كلما سمعت ثناء على إجراءات قتلى تعرضت لأزمة روماتزم !

— عليك أن تروض نفسك عليه .

— كما تفعل أنت ؟!

فقلت ضاحكا :

— إننا مختلفان منذ الأزل كما تعلم .

فمضى وهو يقول لى :

— أتمنى لك أحلاما مزعجة !

* * *

وقالت المدام ولم تكن تشارك فى الشراب وقنعت من الطعام بشريحة شواء وكوب حليب دافىء :

— عيب ثومة أنها تبدأ فى وقت متأخر !

ولكن الشبان نجحوا فى التغلب على آلام الانتظار . وفجأنى منصور باهى قائلا :

— إنى أعرف من تاريخك الشىء الكثير .

اجتاحنى فرح صبيانى كأنما رددت إلى فترة من فترات الشباب ، فمضى يفسر قوله :

— راجعت الصحف القديمة مرات وأنا بصدد إعداد برنامج إذاعى ..

تطلعت إليه مستزيدا فى اهتمام فقال :

— تاريخ طويل حقا ، أسهمت بقدر ملحوظ فى شتى تياراته ،

حزب الأمة ، الحزب الوطنى ، الوفد ، الثورة ..

قبضت على الفرصة بجنون ، مضيت به إلى رحلة فى رحاب التاريخ ، نوهت بمواقف لا يجوز أن تنسى ، استعرضنا الأحزاب . حزب الأمة ما له وما عليه ، والحزب الوطنى ما له وما عليه ، والوفد وحلـه للمتناقضات القديمة وقاعدته الشعبية من الطلبة والعمال والفلاحين ، لماذا جنحت بعد ذلك للاستقلال ، ثم لماذ أيدت الثورة ..

ـــ ولكنك لم تهتم بالمشكلة الاجتماعية الجوهرية ؟

فقلت ضاحكا :

ـــ لقد نشأت عهدا بالأزهر فلم يكن غريبا أن أعمل كمأذون شرعى رسالته فى الحياة أن يوفق بين الشرق والغرب فى الحلال !

ـــ أليس غريبا أن تحمل على النقيضين معا ، أعنى الإخـوان والشيوعيين ؟

ـــ كلا ، كانت فترة حيرة ، ثم جاءت الثورة لتمتص خير مافيهما معا.

ـــ إذن فقد انتهت حيرتك ؟

أجبت بالإيجاب . ثم تذكرت حيرتى الخاصة التى لا تحل بحزب أو ثورة فرددت فى نفسى الدعاء الذى لا يدرى به أحد .

وآن الأوان فدفعت بقاربى المضطرب إلى بحر الأنغام والطرب . نشدته أن يكون من الأعضاء المتنافرة المتناحرة جسما ينبض بالروح والانسجام . نشدته أن يعلمنى التوافق والتوازن فى بناء ترعاه عين الحب

والسلام . أن يصهر عذاباتى فى نغمة تنعش القلب والعقل بجمال البصيرة . أن يسكب الشهد المصفى على عناد الوجود .

* * *

ألم تسمع بالخبر العجيب ؟.. لقد اجتمع مجلس النظار أمس بعوامة منيرة المهدية ..

* * *

ـــ شبان ظرفاء وأغنياء !

هكذا جعلت تردد ماريانا . وقد زادت أعباء زهرة ولكنها حملتها بهمة عالية حقا . أما طلبة مرزوق فراح يقول :

ـــ إنى لا أطمئن إلى أحد منهم .

فسألته ماريانا :

ـــ ولا حسنى علام ؟

فواصل حديثه قائلا :

ـــ سرحان البحيرى أشدهم خطورة ، لقد انتفع بالثورة إلى أقصى حد ، ودعك من أسرة البحيرى التى لم يسمع بها أحد ، ثم إن كل مولود فى البحيرة فهو بحيرى ، حتى زهرة فهى زهرة البحيرى ..

ضحكت كما ضحكت المدام . ومرت بنا زهرة فى طريقها إلى الخارج لأداء واجب من واجباتها ، فرأيتها مطوقة الرأس بإشارب أزرق ابتاعته بنقودها ، تخطر فى جاكتة المدام الرمادية ، فاتنة من فاتنات

الأعشاب الندية والزهور البرية . وعدت أقول :

ــ منصور باهي فتى ذكي ، ما رأيك ؟.. لا يحب الكلمات الجوفاء ، ويخيل إلى أنه ممن يعملون فى صمت ، ثم إنه من جيل الثورة الخالص ..

ــ ما الذى يدعوه ، هو أو غيره ، إلى الالتصاق بالثورة ؟

ــ إنك تتكلم كأنما لا يوجد بالوطن فلاحون ولا عمال ولا شبان!

ــ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم !

فقلت ساخرا :

ــ إنك تتكلم عن حرية بالية ، وحتى هذه لم تحظ باحترامكم أيام سطوتكم ..

* * *

وأنا خارج من الحمام رأيت فى الطرقة شبحين ، زهرة وسرحان البحيرى . فى مهامسة أو مناجاة . لعله أراد أن يدارى موقفه فرفع صوته متحدثا فى بعض الشئون التى تعد الفتاة مسئولة عنها . مضيت إلى حجرتى كأنما لا أرى ولا أسمع ولكن اجتاحنى القلق . كيف تحافظ زهرة على راحة بالها فى خلية غاصة بالشبان ؟. وعندما جاءتنى بقهوة العصر سألتها :

ــ أين تقضين عطلتك الأسبوعية مساء الأحد ؟

أجابت بابتهاج :

— فى السينما .

— وحدك ؟

— مع المدام .

قلت من قلب محب :

— فليحفظك الله ..

ابتسمت قائلة :

— إنك تخاف علىّ كما لو كنت طفلة .

— وإنك لطفلة يا زهرة .

— كلا ، تجدنى فى وقت الشدة كالرجال .

قربت وجهى من وجهها الجميل المحبوب وقلت :

— زهرة . هؤلاء الشبان لا يعرفون للهو حدودا ، أما عند الجد ..

وفرقعت بأصابعى ، ولكنها قالت :

— حدثنى أبى عن كل شىء ..

— إنى فى الواقع أحبك وأخاف عليك .

— أنا فاهمة ، لم أعرف رجلا مثلك منذ أبى ، وأنا أحبك أيضا .

لم أسمع بكلمة الحب من قبل بهذه النعومة الرائقة . وكان من الجائز أن تخاطبنى بها عشرات الأفواه البريئة لولا تهمة ألقيت بغباء ، تهمة لا يمكن أن يقضى فيها أحد من الناس .

* * *

البرقع الأبيض .

خرجت العجوز من الباب إلى الحارة وهى تقول :

— هلمى قد كف المطر ..

تبعتها صاحبة البرقع الأبيض تمشى فى حذر على أرض زلقة متجنبة نقرة مملوءة بماء المطر . عفى الزمان على ذكريات جمالها إلا الأثر . تنحيت جانبا وأنا أردد فى نفسى سبحان الخلاق ذو النعم . واهتز الفؤاد من أعماقه فقلت أتوكل على الله وخير البر عاجله .

* * *

فى المدخل وحدنا وقد جلست تحت العذراء تعكس عيناها الزرقاوان نظرة مثقلة بالفكر . وكان المطر يهطل بلا توقف منذ الظهر والسحب تنتابها نوبات رعدية متفجرة . قالت المدام :

— مسيو عامر ، إنى أشم رائحة غريبة !

رمقتها بحذر فقالت باستياء :

— زهرة !

ثم بعد وقفة قصيرة :

— وسرحان البحيرى !

انقبض صدرى ولكننى تساءلت بسذاجة :

— ماذا تعنين ؟

— أنت تفهم تماما ما أعنى ..

ـــ ولكن الفتاة ..

ـــ قلبي لا يخونني في هذه الأمور !

ـــ البنت طيبة وشريفة يا عزيزتي ماريانا .

ـــ مهما يكن من أمرها فإني لا أحب أن يلعب أحد من وراء ظهري !

إما أن تبقى زهرة شريفة وإما أن تعمل لحسابك . إني أفهمك تماما أيتها العجوز .

* * *

حلمت ـــ وأنا مستغرق في القيلولة ـــ بالمظاهرة الدامية التي اقتحم الإنجليز على أثرها ساحة الأزهر ، وفتحت عيني وأصوات المتظاهرين وطلقات الرصاص تدوي في رأسي . كلا إنها أصوات من نوع آخر تجتاح البنسيون خارج حجرتي . ارتديت الروب وغادرت الحجرة وأنا من الانزعاج في نهاية . وجدت الجميع قد سبقوني إلى المدخل . البعض في حال استطلاع مثلي أما سرحان البحيري فكان ثائرا متسخطا وهو يسوي الكرافتة وياقة القميص ، كذلك زهرة كانت مصفرة الوجه من الغضب وقد تمزقت طاقة فستانها وراح صدرها يعلو وينخفض ، على حين مضى حسني علام إلى الخارج بالروب آخذا معه امرأة غريبة وهي تصرخ وتسب وقد بصقت في وجه سرحان البحيري قبل أن يغيبها الباب . وصاحت المدام :

— لا يجوز هذا فى بنسيون محترم ..

وجعلت تردد بحدة « لا .. لا .. لا ».

ثم خلا المدخل إلا من ثلاثتنا أنا وهى وطلبة مرزوق . سألت ولما أفق من النوم تماما :

— ماذا حدث ؟

فأجابنى طلبة مرزوق :

— لم أر أكثر مما رأيت إلا القليل ..

وذهبت المدام إلى حجرة سرحان للاستماع فيما بدا أما طلبة فواصل الحديث قائلا :

— يبدو أن صاحبنا البحيرى دون جوان عتيد !

— ما الذى حملك على هذا الظن ؟

— ألم تر إلى المرأة وهى تبصق عليه ؟

— ولكن من المرأة الغريبة ؟

— امرأة ، أى امرأة !

ثم وهو يضحك :

— امرأة جاءت تسعى وراء رجلها الهاجر !

وجاءت زهرة وهى ما زالت منفعلة فمضت تقول دون سؤال من أحد :

— فتحت الباب للأستاذ سرحان وإذا بامرأة تتبعه وهو لا يدرى ثم

اشتبكا فى عراك حام .

ورجعت المدام فقالت وهى واقفة :

ـــ الفتاة كانت خطيبته ، أو هذا ما فهمته ..

وضح كل شىء فيما أعتقد غير أن طلبة مرزوق سأل بخبث :

ـــ وما دخل زهرة فى الموضوع ؟

فأجابت زهرة :

ـــ أردت أن أخلص بينهما فتحولت إلىّ ثم كان ما كان !

فقال الرجل :

ـــ إنك ملاكمة جبارة يا زهرة !

فقلت برجاء :

ـــ فلنعتبر الموضوع منتهيا من فضلكم ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ﴾

سمعت يدا تنقر على الباب مستأذنة فى الدخول . دخلت المدام باسمة

ثم جلست أمامى على مقعد بلا ظهر أطرح عليه ساق أحيانا . ثمة زوبعة كانت تعوى فى المنور وأنا مدثر بالروب ، والحجرة نعسانة فى جوها شبه المظلم الذى لا يدل على وقت . قالت وهى تغالب ضحكة :

ـــ إليك نبأ عجيبا ..

أغلقت الكتاب ووضعته على الكوميدينو وأنا أغمغم :

ـــ ليكن سارا يا عزيزتى ..

ـــ زهرة قررت أن تتعلم ..

نظرت إليها ببلاهة و لم أفهم شيئا .

ـــ حقا قررت أن تتعلم ، قالت لى إنها ستغيب ساعة كل يوم لتتلقى درسا ..

قلت :

ـــ هذا مذهل حقا ..

ـــ عندنا فى العمارة بالدور الخامس أسرة فيها ابنة مدرسة اتفقت معها ..

ـــ أكرر أنه قرار مذهل حقا !

ـــ من جانبى لم أعارضها وإن أشفقت على أجرتها التى ستستولى عليها المدرسة ..

ـــ جميل منك هذا يا مدام ولكنى مذهول بكل معنى الكلمة !

ولما جاءتنى زهرة بقهوة العصر قلت لها :

ـــ تخفين عنى أسرارك يا ماكرة !



الفتاة كانت خطيبته ، أو هذا ما فهمته

قالت بحياء :

لا أسرار تخفى عليك .

ـــ وقرارك عن التعليم ؟.. خبريني كيف فكرت فى ذلك ؟

ـــ كل البنات تتعلم ، إنهن يملأن الشوراع ..

ـــ ولكنك لم تفكرى فى ذلك من قبل ..

ضحكت بسرور فقلت :

ـــ إنك قلت لنفسك إنك أجمل منهن فلم يتعلمن ولا تتعلمين..هه؟

جعلت تنظر إلىّ بابتهاج دون أن تنبس فقلت :

ـــ ولكن ليس ذاك بكل شىء ..

ـــ ماذا هناك أيضا ؟

ترددت لحظة ثم قلت :

ـــ هناك صاحبنا سرحان البحيرى ..

تورد وجهها وغضت البصر فقلت بإشفاق :

ـــ أما التعليم ففكرة مدهشة وأما سرحان ..

ترددت فى الإفصاح فتساءلت :

ـــ ماله ؟

ـــ هؤلاء الشبان طموحون !

قالت بامتعاض :

ـــ كلنا أبناء حواء وآدم ..

ــ هذا حق ولكن ..

ــ الدنيا تغيرت ، أليس كذلك ؟

ــ الدنيا تغيرت ولكنهم لم يتغيروا بعد ..

امتلأت نظرتها بالتفكير وهي تقول :

ــ بعد الكتابة والقراءة سأتعلم مهنة كالخياطة .

خفت إن تكلمت أكثر أن أجرح مشاعرها فسألتها :

ــ هل يحبك حقا ؟

فأحنت رأسها بالإيجاب فقلت :

ــ ليحفظك الله ويسعدك .

ورحت أساعدها من حين لآخر وهي تدق باب المجهول ، عالم الكلمات والأعداد . وعلم الجميع بقرارها وناقشوه طويلا ولكن لم يسخر منها أحد . على الأقل أمامها . كان الجميع يميلون إليها فيما أعتقد . كل على طريقته . وتابع طلبة مرزوق القضية فلم يخف عليه شيء من أسرارها ، ثم قال لى :

ــ ما هو الحل السعيد لمشكلة زهرة ؟.. أن ينزل عندنا يوما منتج سينمائى . ما رأيك ؟

فلعنت رأيه .

* * *

وذات أصيل ذهبت كالعادة إلى مجلسى بالمدخل فرأيت زهرة جالسة

إلى جانب فتاة غريبة على الكنبة . من لمحة أدركت أنها المدرسة . فتاة ريفية وجميلة . وقد تكرمت بالحضور إليها بسبب وجود زوار فى شقتها . وكالعادة كانت المدام قد استجوبتها وعرفت عنها بعض ما تتطلع إليه فأخبرت بأنها تقيم مع والديها وأن لها أخا يعمل فى السعودية . وتكرر حضور المدرسة للبنسيون ، وكانت تثنى على اجتهاد تلميذتها .

ولاحظت مرة — وزهرة قادمة بقهوة العصر — أنها متجهمة فسألتها عن الصحة فأجابتنى بفتور :

— كالبغل !

— والدروس ؟

— لا شكوى من هذه الناحية .

فقلت بقلق :

— لم يبق إلا صديقنا البحيرى !

وصمتنا بعض الوقت كأنما لنصغى إلى صوت المطر المنهمر ، ثم قلت :

— لا أطيق أن أراك متألمة .

فقالت بامتنان :

— إنى أصدقك .

— ماذا حدث ؟

— الحظ يعاندنى .

— قلت لك من أول يوم ..

— ليس الأمر بالسهولة التى تتصورها !

ثم نظرت إلىّ بكآبة وقالت بانفعال :

— ما العمل ؟، إنى أحبه ، ماالعمل ؟

— هل تبين لك كذبه ؟

— كلا ، إنه يحبنى أيضا ، ولكنه يتكلم دائما عن العقبات .

— لكن الرجل إذا أحب .

فقالت بإصرار :

— إنه يحبنى ولكنه دائما يتكلم عن العقبات .

فقلت بحنان :

— ولكن ما ذنبك أنت ؟. يجب أن تعرف لنفسك طريقا .

فمضت وهى تقول :

— ما قيمة أن أعرف ما يجب عمله ما دمت لا أستطيعه !

* * *

— يا . سعادة الباشا كيف هان عليك .

فقاطعنى قائلا :

— كان علىّ أن أختار بين أمرين ، فإما الانتفاع ببنك التسليف الزراعى مع إعلان خروجى على الوفد وإما الخراب .

— ولكن الكثيرين فضلوا الخراب !

فصاح غاضبا :

ـــ صه .. إنك لا تملك قيراطا ولا ابن لك ولا بنت ، ولقد ضربت واعتقلت فى قشلاق قصر النيل ، ولكن ابنتى أعز علىّ من الدنيا والآخرة !

* * *

فقالت لى المدام هامسة :

ـــ تعال معى ، أهل زهرة حضروا .

مضيت معها إلى المدخل فرأيت شقيقة زهرة وزوجها جالسين والفتاة واقفة فى وسط المكان تنظر إليهما فى صلابة وعناد . وكان الرجل يقول :

ـــ حسن أن تذهبى إلى المدام ولكن عار أن تهربى .

وقالت أختها :

ـــ فضحتنا يا زهرة فى الزيادية كلها .

فقالت زهرة بغضب وحدة :

ـــ أنا حرة ولا شأن لأحد بى .

ـــ لو كان جدك يستطيع السفر !

ـــ لا أحد لى بعد أبى .

ـــ يا للعيب .. هل كفر لأنه أراد أن يزوجك من رجل مستور ؟

ـــ أراد أن يبيعنى .

— الله يسامحك .. قومى معنا ..

— لن أرجع ولو رجع الأموات .

وهم زوج أختها بالكلام ولكنها بادرته :

— لا شأن لك بى !

وأشارت إلى المدام قائلة :

— إنى أعمل هنا كما يعمل الشرفاء وأعيش من عرق جبينى !

خيل إلى أنهما يودان أن يصارحاها برأيهما فى المدام والبنسيون وتمثال العذراء ولكنهما لا يستطيعان . وقالت المدام :

— زهرة ابنة رجل كنت أحترمه ، إنى أعاملها كابنة ، فأهلا بها إن أرادت البقاء .

ونظرت المدام إلىّ كأنما تستحثنى على الكلام فقلت :

— فكرى يا زهرة واختارى !

لكنها قالت بإصرار :

— لن أرجع ولو رجع الأموات !

انتهت الرحلة بالفشل فمضى الرجل بزوجته وهو يقول لزهرة :

— القتل لك حق وعدل .

وجعلنا نناقش الموضوع ، ونقول ونعيد ، حتى قالت لى زهرة :

— خبرنى عن رأيك صراحة ؟

فقلت :

— أتمنى أن ترجعى إلى قريتك !

— أرجع للهوان ؟

— قلت « أتمنى » يا زهرة .. أقصد أن ترجعى وأن يكون فى الرجوع سعادتك .

— إنى أحب الأرض والقرية ولكننى لا أحب الشقاء !

وانتهزت فرصة ذهاب المدام إلى بعض شأنها فقالت بحزن :

— هنا الحب والتعليم والنظافة والأمل !

أدركت أشجانها . لقد هاجرت مثلها مع والدى من القرية . وأحببت القرية مثلها ولكنى ضقت بالعيش فيها . وعلمت نفسى كما تود أن تفعل . ورميت مثلها بتهمة باطلة فقال أقوام إنى أستحق القتل . ومثلها فتننى الحب والتعليم والنظافة والأمل .

الله أسأل أن يجعل حظك أسعد من حظى يا زهرة .

* * *

دنا الخريف من نهايته ولكن جو الإسكندرية يسير على هواه . وقد أنعمت بركاته علينا بصباح مضىء دافئ فابتهج ميدان الرمل تحت أشعة الشمس الهابطة من سماء صافية الزرقة . ابتسم إلى محمود أبو العباس بائع الجرائد وأنا أقف أمام معرضه الملون بأغلفة المجلات والكتب ، ابتسم وقال لى :

— سعادة البك ؟.

ظننت أن ثمة خطأ فى الحساب . نظرت إليه متسائلا وهو قائم أمامى بجسمه الفارع فقال :

ـــ سعادتك تقيم فى بنسيون ميرامار ؟.

أجبت بهزة من رأسى فقال :

ـــ لا مؤاخذة ، توجد فى البنسيون بنت اسمها زهرة ؟.

أجبت بانتباه مفاجئ :

ـــ نعم .

ـــ أين أهلها ؟.

ـــ لكن لماذا تسأل ؟.

ـــ لا مؤاخذة ، أريد أن أخطبها .

فكرت قليلا ثم قلت :

ـــ أهلها فى الريف وأظنها على خلاف معهم ، هل فاتحتها فى الأمر ؟.

ـــ إنها تجيء أحيانا لشراء الجرائد ولكنها لا تشجعنى على الكلام .

وزار المدام مساء اليوم نفسه ليطلب يد زهرة . وخاطبت المدام زهرة فى الأمر بعد ذهابه . ولكنها رفضته بلا تردد ولا تفكير . ولما أعادت على مسمعنا ـــ أنا وطلبة ـــ الحكاية قال الرجل :

ـــ لقد أفسدتها يا ماريانا ، نظفتها ولبستها ملابسك ، وها هى تختلط بالشبان الممتازين فتلعب بعقولها الأحلام ، وليس لذلك كله إلا نهاية

محتومة واحدة !.

وفى خلوتنا اليومية — عندما جاءتنى بقهوة العصر — تحادثنا فى الموضوع . قلت لها :

— كان يجب أن تفكرى فى الأمر .

فقالت محتجة :

— ولكنك تعرف كل شىء !.

— لا ضرر ألبتة من التفكير والمشاورة .

فقالت معاتبة :

— إنك ترانى شيئا حقيرا لا يجوز له أن ينظر إلى فوق !

فلوحت بيدى معترضا وقلت :

— المسألة أننى أراه زوجا كفئا ، هذا كل ما هناك .

— سأعود معه إلى مثل حياة القرية التى هربت منها !.

لم أرتح إلى حجتها فواصلت حديثها قائلة :

— ومرة سمعته يتكلم مع صاحب له وهو لا يرانى فيقول له إن النساء تختلف فى الألوان ولكنها تتفق على حقيقة واحدة ، فكل امرأة حيوان لطيف بلا عقل ولا دين ، والوسيلة الوحيدة التى تجعل منهن حيوانات أليفة هى الحذاء !.

نظرت إلىّ كالمتحدية ثم تساءلت :

— أمن العيب أن أحب لنفسى حياة كريمة ؟.

لم أجد ما أقوله. ورغم تظاهرى بالأسف فإننى شعرت بإعجاب بها لا يحد. لن أضايقك بنصائح العجائز. لقد كان سعد زغلول يستمع إلى نصائح الشيوخ ولكنه اتبع غالبا آراء الشباب . ليحفظك الله يا زهرة.

* * *

ــ أحداث هامة تقع من حولك وأنت لا تدرى أيها العجوز !

قال طلبة مرزوق ذلك وهو يبتسم ابتسامة خبيثة . كنا نجلس فى المدخل وحدنا ولا أنيس لنا إلا صوت هطول المطر . سألته وأنا أتوقع أنباء سوء :

ــ ماذا هناك ؟.

ــ دون جوان البحيرة يدبر انقلابا فى الخفاء .

همنى الأمر لصلته بزهرة فسألته عما يعنى فقال :

ــ غير الهدف القديم ، وهو يسدد الآن بإحكام نحو هدف جديد !.

ــ تكلم بلا تلذذ بالمصائب .

ــ حسن ، جاء دور الأستاذة !.

ــ المدرسة ؟

ــ بالضبط ، لمحت نظرت متبادلة وأنا كما تعلم لى خبرة قديمة بهذه اللغة .

ــ يا لك من رجل تتجسد له أفكاره الشريرة فى صورة حقائق ..

قال وهو يسخر ضاحكا ، وشامتا :

ـــ بابا عامر .. أدعوك إلى متابعة ألطف دراما فى ميرامار !

عزمت على ألا أصدقه ولكن كدر صفوى القلق . وإذا بحسنى علام يحدثنا فى نفس اليوم عن معركة دارت بين سرحان البحيرى ومحمود أبو العباس بائع الجرائد فى ميدان الرمل . خمنت ما وراء المعركة من أسباب ولكن تخيل تطوراتها كان فوق المستطاع . وقال حسنى :

ـــ تبادلا الضرب حتى خلص الناس بينهما .

فسأله طلبة مرزوق :

ـــ هل شهدتهما وهما يتضاربان ؟.

ـــ كلا ، علمت بما كان بعد وقوعه بفترة وجيزة .

وتساءلت المدام بإشفاق :

ـــ وهل وصل الأمر إلى القسم ؟

ـــ كلا ، انتهى بسيل من السباب والوعيد..

ولم يشر سرحان إلى الواقعة فتجنبنا ذكرها . ورجعت أفكر فيما قال طلبة عن سرحان والمدرسة فاعترانى غم ونكد .

* * *

الوفاء عند الملاح صدف   أسعفينى يا دموع العين

واستعدناها مرات ومرات بالتصفيق والهتاف فراح يغنى جنى مطلع الفجر . كنت ليلتها مكتظا بالشباب والقوة والطعام والخمر . والقلب يعانى وحده أسرار الشجن .

حلمت بوفاة أبى .

كنت مستغرقا فى النوم فى الهزيع الأخير من الليل . رأيتهم وهم يحملونه من رواق مسجد أبى العباس حيث أدركته الوفاة ثم يمضون به إلى البيت . بكيت . ودوى فى أذنى صوات أمى . ومضى يدوى حتى فتحت عينى .

يا إلهى ماذا يحدث فى الخارج ؟. كالمرة السابقة ؟. لقد انقلب بنسيون ميرامار إلى ميدان قتال . ولكن عندما غادرت حجرتى كان كل شىء قد انتهى . ولحقتنى ماريانا فأقبلت نحوى كالمستغيثة فدخلنا الحجرة وهى تهتف :

ـــ لا .. لا .. فليذهبوا جميعا إلى الجحيم .

نظرت إليها بعينى المثقلتين بالنوم فقصت علىّ القصة الجديدة . استيقظت على صوت عراك ، غادرت حجرتها فوجدت سرحان البحيرى وحسنى علام وهما يتضاربان .

ـــ حسنى علام !؟

ـــ نعم ، لم لا ، يجب أن يأخذ كل نصيبه من الجنون !

فسألتها بامتعاض :

ـــ ولكن ما السبب ؟.

ـــ آه ، فلنرجع خطوة إلى الوراء ، إلى حادثة لم أشهدها لأنى كنت مثلكم مستغرقة فى النوم .

— وهى ؟.

— قالت زهرة إن حسنى علام رجع من الخارج سكران فحاول أن ..

— لا ..!

— إنى أصدقها يا مسيو عامر .

— وأنا أيضا ، ولكن حسنى لم يلاحظ عليه أنه ..

— لا يمكن أن نلاحظ كل شيء . وقد استيقظ سرحان فى الوقت المناسب فكان ما كان .

— يا للأسف !.

مسحت على عنقها كأنما لتزيل عنه الألم الذى ألم بأوتار صوتها من الزعق ، ورجعت تقول :

— لا .. فليذهبوا إلى الجحيم .

فقلت بامتعاض :

— على الأقل يجب أن يذهب حسنى علام .

لم تعلق على قولى ، بل ولم تتحمس له ، ثم غادرت الحجرة متجهمة .

ولما جاءتنى زهرة عصر اليوم التالى تبادلنا نظرات ذات معنى. غمغمت:

— أسفت جدا يا زهرة .

فقالت بسخط :

— رجال بلا شهامة .

— للحق إن المكان لا يليق بك .

ـــ بوسعي دائما أن أدافع عن نفسي ، وقد فعلت .

ـــ ولكن ليست هذه بالحياة المطمئنة التي ترجى لبنت طيبة مثلك .

فقالت بعناد :

ـــ يوجد أرذال في كل مكان ، حتى في القرية !

* * *

غادرت البنسيون عقب أيام حبست فيها داخله لشدة البرد وثورة الرياح وانهلال المطر . كانت أياما فظيعة فانطوينا على أنفسنا في الحجرات ، ولكن لم يكف الجو عن مهاجمتنا في قواقعنا ، لطمت المياه النوافذ ، وزلزلت الجدارن بصواعق الرعد ، ووض البرق كالنذر ، وصرخت الرياح كعزيف الجان .

ولما غادرت البنسيون استقبلني الوجه الآخر للإسكندرية ، الذي أفرخ غضبه . وثاب إلى وداعته ، تلقيت الشعاع الذهبي المغسول بامتنان ، نظرت إلى الأمواج وهي تتتابع في براءة ، على حين نقشت السماء بسحائب صغيرة متهافتة كالأنفاس المترددة . جلست في التريانون لأشرب القهوة باللبن . كما كنت أجلس في الأيام الخالية مع الغرابلي باشا والشيخ جاويش ، ومدام لبراسكا الأفرنجية الوحيدة التي جربتها وسط طوفان من الملاءات اللف !. جلس معي طلبة مرزوق بعض الوقت ثم انصراف إلى بهو وندسور لمقابلة صديق قديم . وإذا بسرحان البحيري يقبل نحوي فيسلم ويجلس ثم يقول :

ــ فرصة سعيدة . دعنى أودعك فقد لا ألقاك وأنا أغادر البنسيون !.

سألته بدهشة :

ــ هل عزمت على الرحيل ؟.

فأجاب بصوته العريض :

ــ نعم ، انتهت الاقامة ، ولو ذهبت دون أن أودعك لأسفت على ذلك طيلة العمر !.

شكرت له رقته ، ولكنى وجدت أسئلة تلح على ، غير أنه لم يهبنى فرصة لمزيد من الكلام إذ يلوح بيده لشخص قادم ثم صافحنى وذهب .

وسألت نفسى فى قلق وكآبة : ماذا عن زهرة ؟.

* * *

قبض بشدة على قضبان قفص الاتهام وهو يستمع إلى النطق بالحكم ثم صاح بأعلى صوته فى المحكمة :

ــ يا فرحتك فى يا دنف ، يا فرحتك فى يا نعيمة يا ضباطى !

* * *

ولما رجعت إلى البنسيون وجدت المدام وطلبة مرزوق وزهرة مجتمعين فى المدخل ، مغلفين بكآبة أبلغ فى إفصاحها عن أى تفجع أو ندب !. جلست صامتا وقد وضح لى ما وددت أن أسأل الآخر عنه .

قالت المدام :

ـــ تكشف أخيرا ذاك السرحان عن حقيقته .

تمتمت :

ـــ قابلني منذ ساعات فى التريانون فأخبرنى بأنه سيغادر البنسيون !

ـــ الحق أنى طردته !

ثم وهى تشير نحو زهرة :

ـــ هاجمها بلا حياء ، ثم أعلن بأنه ذاهب ليتزوج من المدرسة !

نظرت إلى طلبة فنظر إلى وقال ساخرا :

ـــ أخيرا استقر رأيه على الزواج !

وقالت المدام :

ـــ لم يرتح له قلبى أبدا ، من أول نظرة فهمته ، شرير لا خلاق له !

ثم واصلت حديثها :

ـــ أراد مسيو منصور باهى أن يناقشه وإذا بمعركة جديدة تنشب فجأة، عند ذاك صرخت فى وجهه أن يخرج إلى غير رجعة!

نظرت إلى زهرة بإشفاق. أيقنت أن اللعبة قد انتهت، وأن الوغد قد ذهب بلا جزاء. وغضبت غضبة كغضبات الأيام المريرة ثم قلت لزهرة:

ـــ إنه وغد لا يستحق أن تأسفي عليه !

ولما خلوت إلى طلبة قلت له :

ـــ ليتها تقبل الزواج من محمود أبو العباس !

فقال لى بلهجة من يوقظ محدثه من غفلة :

ـــ يا رجل ، أى محمود !، ألم تدرك بعد أنها فقدت الشىء الذى لا يعوض ؟

قطبت محتجا ، وقد أخذت فى الوقت نفسه ، فقال ساخرا :

ـــ أين عقلك أيها العجوز ؟.. وأين فطنتك ؟

ـــ ليست زهرة كالأخريات .

ـــ الله يرحمك .

وبقدر ما حنقت عليه بقدر ما اجتاحنى الشك . وقلت لنفسى بحزن عميق : يا للخسارة !.

وعاد طلبة يقول :

ـــ المدام أول من نبهنى ولكننى لم أكن فى حاجة إلى تنبيه !

ـــ امرأة سوء !

ـــ إنها كما تعلم على استعداد دائما لحمايتها أو لاستغلالها ..

فقلت بغيظ :

ـــ لا هذا ولا ذاك ، أقسم على ذلك .

وجاء لقاء العصر حزينا مؤثرا . رجتنى ألا أذكرها بنصائحى القديمة وألا ألوم أو أعتب . تبرأت من ذلك كله وقلت إن عليها أن تواجه مستقبلها بشجاعة هى جديرة بها .

ـــ ترى هل يفتر حماسك للتعليم ؟

فقالت بتصميم وبلا أدنى ابتهاج :

ـــ سأجد مدرسة أخرى !

فهمست :

ـــ وإن احتجت إلى أى مساعدة ..

مالت نحوى حتى لثمت منكبى ثم عضت على شفتها لتمنع الدموع . مددت يدى المعروقة المدبوغة حتى مسحت بحنان شعرها الأسود وتمتمت :

ـــ ليحفظك الله يا زهرة .

* * *

لزمت حجرتى تلك الليلة مذعنا لإحساس شامل بالإعياء . وأقعدنى التعب بضعة أيام أخر . وجعلت المدام تحثنى على مقاومة الضعف لأشهد ليلة رأس السنة الجديدة . وفى سياق ذلك سألتنى :

ـــ نقضيها فى المونسنيير كما يقترح طلبة بك أم نقضيها هنا ؟

غمغمت فى فتور :

ـــ هنا أفضل يا عزيزتى .

كم احتفلت بها فى صولت وجروبى وألف ليلة وحديقة لبتون . وقد مرت بى عاما وأنا معتقل فى سجن القلعة الحربى .

* * *

وفى صباح اليوم الثالث لاعتكافى اقتحمت المدام غرفتى فى غاية من الانزعاج ثم قالت لاهثة :

ـــ أما سمعت بالخبر ؟

ثم وهى تغوص فى المقعد الكبير :

ـــ قتل سرحان البحيرى !

هتفت :

ـــ هه !؟

ـــ وجد قتيلا فى طريق البالما !

ولحق بها طلبة مرزوق قابضا بعصبية على الجريدة وهو يقول :

ـــ خبر مزعج جدا ، وقد يجر علينا متاعب لم تكن فى الحسبان !.

وجعلنا نتبادل النظر والرأى دون جدوى . استعرضنا كافة الاحتمالات ، فكرنا فى خطيبته الأولى ، حسنى علام ، منصور باهى ، محمود أبو العباس ، حتى قالت المدام :

ـــ قد يكون القاتل شخصا آخر لا يخطر لنا ببال .

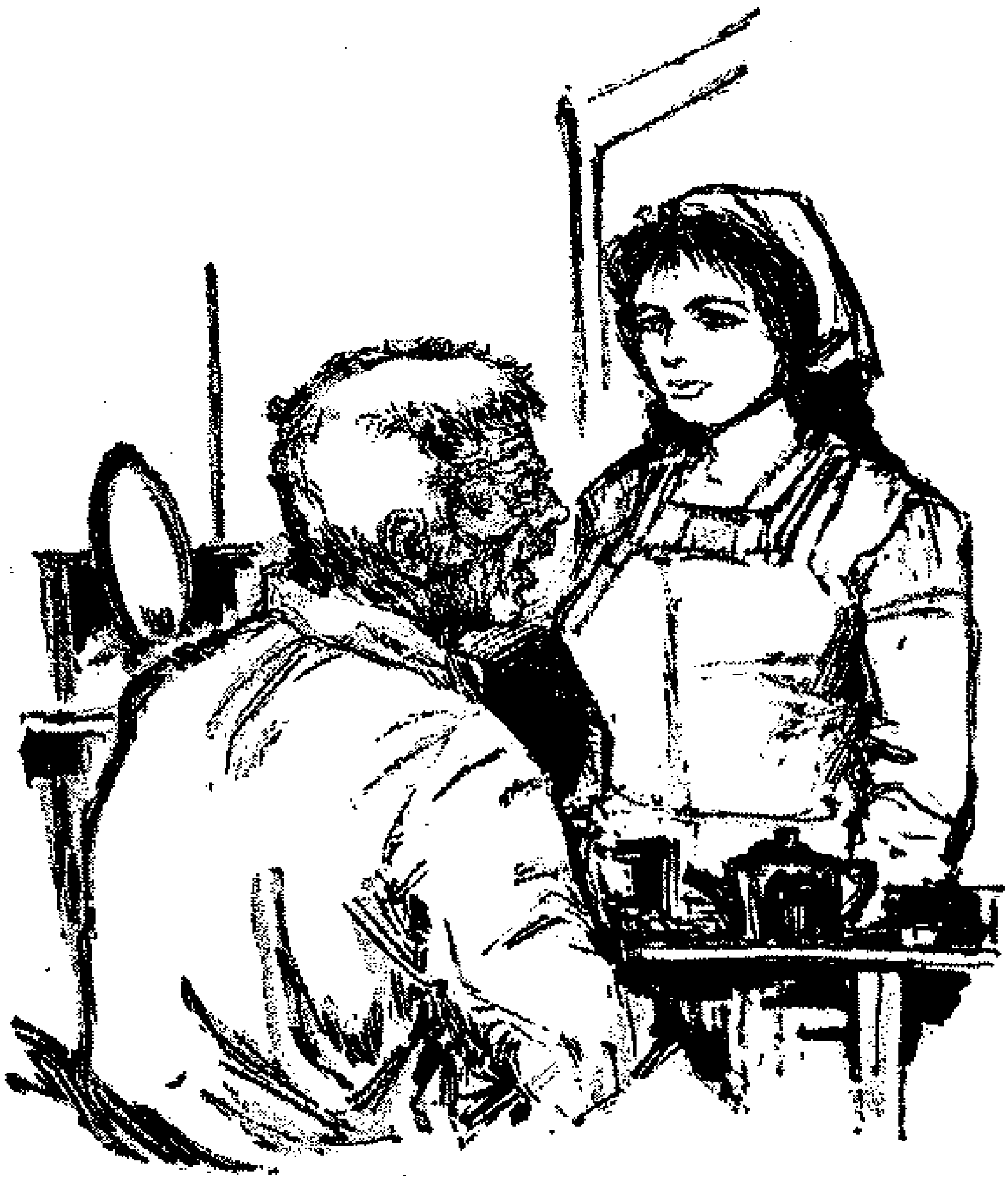
فقلت :

ـــ لم لا ، نحن لا نكاد نعرف عن الشاب شيئا ، لا عن حياته ولا علاقاته ولا ظروفه ..

فقالت المدام بقلق :

ـــ كم أتمنى أن يكتشفوا القاتل عاجلا وأن يكون بعيدا عنا كل البعد ، وألا أرى وجه رجل من البوليس ..

فأيدها طلبة مرزوق قائلا :



ليحفظك الله يا زهرة

ـــ كم أتمنى ذلك أيضا !

وسألت عن زهرة فتنهدت المدام قائلة :

ـــ صعقت المسكينة ، صعقت بكل معنى الكلمة ..

قلت بحزن :

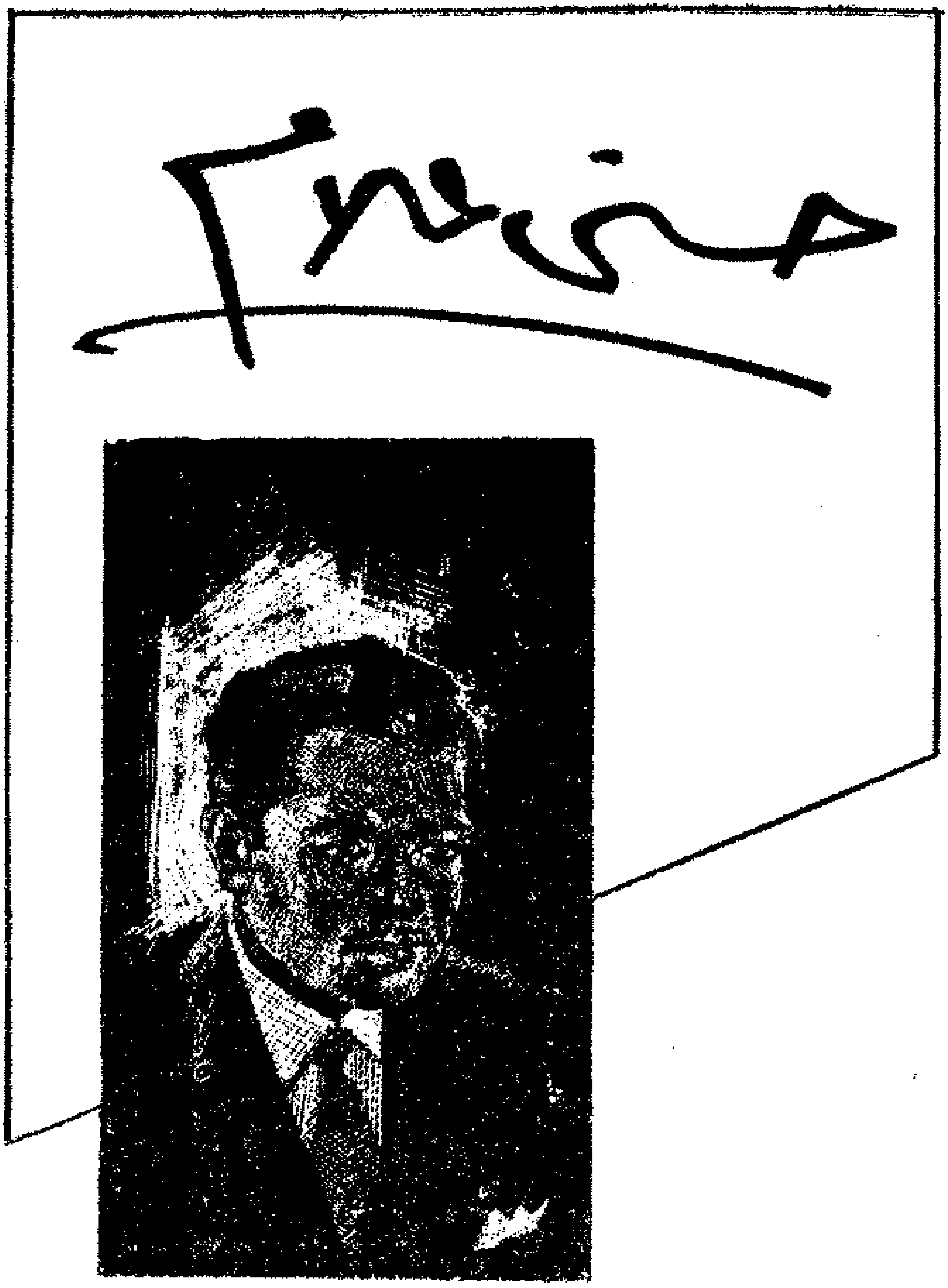
ـــ ألا يمكن أن أراها ؟

ـــ إنها منهارة تماما فى حجرتها وقد أغلقت الباب .

وعدنا نتبادل الرأى والنظر دون جدوى .

أخيرا أغمضت عينى فتردد فى خاطرى :

﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾



٢

حسنى علام

فريكيكو .. لا تلمنى !

وجه البحر أسود محتقن بزرقة . يتميز غيظا . يكظم غيظه . تتلاطم أمواجه فى اختناق . يغلى بغضب أبدى لا متنفس له .

ثورة . لم لا . كى تؤدبكم وتفقركم وتمرغ أنوفكم فى التراب . يا سلالة الجوارى . إنى منكم وهو قضاء لا حيلة لى فيه . وقد عرفتنى ذات العين الزرقاء بقولها « غير مثقف ، والمائة الفدان على كف عفريت ». وقبعت تنتظر ثورا آخر .

الكورنيش لا يرى من شرفة سيسل . إن لم أنحن فوق السور فلا سبيل لرؤيته . البحر يمتد مباشرة كأنما أراه من سفينة . وهو يترامى حتى قلعة قايتباى محصورا بين سياج الكورنيش وذراع حجرى يضرب

فى الماء كالغول . بينهما يختنق البحر . يتلاطم موجه فى تثاقل وهو كظيم . بوجه أسود ضارب للزرقة منذر بالغضب . يضطرم بباطن محشو بأسرار الموت ونفاياته .

أما الغرفة فتنطبع بسحنة كلاسيكية . تذكرنى بسراى آل علام بطنطا . لذلك أضيق بها . وقد غرب مجد الريف وجاء عصر الشهادات يحملها أبناء السفلة . حسن ، لتكن ثورة . ولتدككم دكا . إنى أتبرأ منكم . سأنشىء عملا . أتبرأ منكم يا فتات العصور البالية .

فريكيكو .. لا تلمنى .

* * *

ذات يوم ـــ ومحمد النوبى يقدم لى الإفطار فى الحجرة ـــ خطر لى أن أقول له :

ـــ كم أشعر بالضجر فى فندقكم العظيم !

عادة قديمة لى أن أقيم علاقات طيبة مع خدم الفنادق التى أنزل بها . بالمؤانسة والسخاء ، لحين الحاجة إليهم !. وإذا بالرجل يسألنى :

ـــ هل تقيم فى الإسكندرية مدة طويلة ؟

ـــ جدا !

ـــ أليست الإقامة فى بنسيون معقول أفضل لك فى تلك الحال ؟

نظرت إليه مستطلعا فقال :

ـــ هناك بنسيون نظيف ومعقول . ستجد فيه تسلية أكثر ونفقات

أقل، ولكن ليكن ذلك سرا بيننا !

ظريف ومفيد وخائن . يخدم فى جهة ويعمل لحساب أخرى ككثيرين من مواطني الأعزاء . وحق أن للبنسيون جوا عائليا حميما . وهو أنسب لمن يفكر فى مشروع جديد . وهل ساقنى إلى سيسل إلا عادة قديمة متأصلة وكبرياء لم يخفف من غلوائه بعد ؟!

* * *

فتحت شراعة الباب عن وجه جميل . أجمل مما يليق بخادمة . أجمل مما يليق بسيدة . يا لها من شابة مليحة . وسوف تعشقنى من النظرة الأولى .

— نعم ؟

فلاحة ؟. عجبا . ليدفن سيسل فى جوف الأمواج السوداء .

— من طرف محمد كامل بفندق سيسل .

أجلستنى فى المدخل ومضت إلى الداخل . جعلت أنظر إلى الصور كمقدمة لمعرفة أصحابها . من هذا الضابط الإنجليزى ؟. ومن الحسناء المتكئة على ظهر الكرسى ؟. جميلة ومثيرة . ولكنها قديمة !. موضة الفستان تقطع بأنها كانت معاصرة للعذراء !

وجاءت عجوز مضيئة مذهبة . صاحبة البنسيون بلا ريب . الطراز الكامل لقوادة إفرنجية متقاعدة . أو غير متقاعدة كما أرجو . وتلك صورتها قبل أن يخربها الزمن . ها هى الأمور تتضح . لقد ترجم محمد

كامل شكواى من الضجر بلغته الخاصة . وخيرا فعل . وكلما توفر الترفيه تهيأ الجو للتفكير فى المشروعات الجديدة .

— حجرة خالية يا مدام .

— كنت تقيم فى سيسل ؟

بهرها ذلك بلا شك . تمنيت أن ترجع إلى الوراء أربعين عاما . وأجبت بالإيجاب فسألت :

— كم يوما ؟

— على الأقل شهر وقد يمتد عاما .

— إلا أشهر الصيف فلا بد من اتفاق خاص .

— ليكن ..

— طالب ؟

— من الأعيان .

جاءت بالسجل وهى تسألنى عن اسمى فقلت :

— حسنى علام .

غير مثقف وذو مائة فدان على كف عفريت وسعيد الحظ لأنه لم يعرف الحب الذى يتغنى به المطربون .

* * *

حجرة مقبولة بنفسجية الجدران . ها هو البحر يترامى فى زرقة صافية حتى الأفق . ونسائم الخريف تلاعب الستائر ، وفى السماء

قطعان مبعثرة من السحائب . التفت نحو الفلاحة وهى تفرش السرير بالملاءات والأغطية . جسمها قوى رشيق مفصل المحاسن ، وإن صدق ظنى فهى لم تحبل ، ولم تجهض بعد !. على أى حال من المستحسن أن أتأنى حتى أحيط بأسرار المكان .

— اسمك يا حلوة ؟

أجابت بوجه جاد :

— زهرة .

— عاش من سمى .

شكرتنى برأسها وبلا ابتسامة .

— يوجد فى البنسيون نزلاء آخرون ؟

— رجلان وشاب مثل حضرتك ..

— وأى اسم أختار لك للدلاعة ؟

أجابت بأدب ودون تشجيع :

— اسمى زهرة .

جادة أكثر مما يليق . سوف تكون زينة أى شقة أستأجرها فى المستقبل . وهى أجمل من قريبتى الحمقاء التى قررت أن تختار عريسها على ضوء الميثاق .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

ـــ أأنت جاد فيما تقول ؟

ـــ طبعا يا عزيزتى ..

ـــ ولكنك فى رأيى لا تعرف الحب !

ـــ أريد أن أتزوج كما ترين ..

ـــ يخيل إلى أنك لا يمكن أن تحب .

ـــ أريد أن أتزوج منك ، ألا يعنى هذا أننى أحبك ؟

ثم قلت وأنا أراوغ الغيظ والغضب :

ـــ وإنى كفء للزواج ، أليس كذلك ؟

بعد تردد قالت :

ـــ ما قيمة الأرض الآن ؟

حملت نفسى مسئولية الموقف المهين ثم مضيت وأنا أقول :

ـــ سأتركك لتفكرى فى هدوء ..

* * *

على مائدة الإفطار تم التعارف بينى وبين النزلاء الآخرين . عامر وجدى صحفى متقاعد فى الثمانين على أقل تقدير ، نحيل مع ميل إلى الطول ، وذو صحة يحسد عليها ، ووجهه المتجعد الغائر العينين البارز العظام لم يدع للموت شيئا يلتهمه . كرهت منظره ، وعجبت كيف يبقى حيا على حين تهلك أجيال من الشباب كل يوم .

طلبة مرزوق لم يكن بالغريب على . وقد علق عمى ذات يوم بعطف

على وضعه تحت الحراسة ، ولكننى لم أشر إلى ذلك بطبيعة الحال . كنا وما زلنا نتابع أخبار الحراسة بشغف شهوانى مخيف كأفلام الرعب . وقد سألنى :

ـــ من آل علام بطنطا ؟

أجبت بالإيجاب . وبسرور خفي . فقال :

ـــ عرفت والدك . كان مزارعا ممتازا ..

ثم التفت إلى عامر وجدى ـــ وكان يغادر المائدة ـــ وقال ضاحكا :

ـــ ولم يقع رحمه الله طويلا تحت تأثير المهرجين !

ولما أدرك أننى لم أفهم ما يعنيه قال :

ـــ أقصد الوفديين .

فقلت بعدم اكتراث :

ـــ مدى علمي أنه كان وفديا عندما كانت البلاد كلها وفدية ..

آمن على قولى ثم عاد يسألنى :

ـــ أظن لك إخوة وأخوات ؟

ـــ أخى قنصل بإيطاليا وأختى زوجة لسفيرنا فى الحبشة !

فتحرك شدقاه حركة راقصة ثم سألنى :

ـــ وأنت ؟

كرهته فى تلك اللحظة حتى وددت له الموت غرقا أو حرقا ، ولكننى

أجبت باستهانة :

— لا شيء ..

— ألا تزرع أرضك ؟

— إنها مؤجرة كما تعلم ولكنى أفكر فى إنشاء عمل جديد ..

كان يتابعنا سرحان البحيرى — النزيل الثالث ووكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل — وكذلك المدام العجوز . وسألنى سرحان :

— أى عمل ؟

— لم أستقر على رأى بعد .

— أليس الأضمن أن تبحث لك عن وظيفة ؟

كرهته فى تلك اللحظة هو الآخر . به لهجة ريفية خفيفة لصقت به كرائحة طعام فى إناء لم يحسن غسله . وهو حيوان لا يسع مرفت أن تصمه بأنه غير متعلم أو غير مثقف . وإذا سولت له نفسه أن يسألنى عن شهادتى فسأقذفه بقدح الشاى .

* * *

— من أين جاءك هذا الحماس للثورة ؟

— هذا ما أعتقده يا عمى ..

— لا أصدقك ..

— بل صدقنى بلا تردد .

ضحك ضحكة فاترة وقال :

ـــ الظاهر أن اعتذار مرفت قد أطاح بعقلك !

فقلت باستياء :

ـــ الزواج كان فكرة عابرة !

فقال باستياء أيضا :

ـــ رحم الله والدك ، أورثك عناده دون حكمته !

* * *

وكم أغرانى الغيظ بالهجوم على الثورة ممثلة فى شخص سرحان المتفع بها بلا شك ولكننى لم أستسلم للتهور . وسألتنى المدام العجوز :

ـــ لم لا تحدثنا عن مشروعاتك ؟

ـــ لم أجده بعد .

ـــ إذن فأنت غنى ؟

ابتسمت بثقة دون أن أجيب فراحت تنظر إلىّ باهتمام .

* * *

غادرت البنسيون أنا وسرحان فحملنا المصعد معا . جعل ينظر إلىّ بعينين باسمتين داعيتين إلى مزيد من التعارف فخف سخطى عليه درجات . وقال وكأنه يصحح خطأه دون شعور منه :

ـــ الوظيفة اليوم أضمن مما عداها ولكن العمل الحر إذا اختير بحكمة ..

تركنا المصعد قبل أن يتم جملته ولكن لهجته المؤيدة أغنت عن الكلام . وافترقنا فمضى نحو محطة الترام ، ومضيت نحو الجراح . مررت أمام مقهى الميرامار القائم أسفل العمارة فتذكرت جلوسى به مع عمى فى الأيام الخالية ، وقبل وقوع الكارثة . كان يذهب إليه فى الأصائل ليدخن النارجيلة ، فيجلس متلفعا بعباءته الخفيفة كملك متنكر فى ثياب العامة ، يتوسط مجموعة من الشيوخ والنواب والأعيان !. أجل تلك أيام خلت ، ولكنه يستحق أكثر مما حاق به .

استقللت سيارتى الفورد بلا هدف معين سوى رغبتى الأبدية فى التجوال والسرعة . وقلت لنفسى إنه من المستحسن ألا أنبذ سرحان البحيرى فقد أجد نفعا فى خبرته ومعارفه بالمدينة . وانطلقت بالسيارة إلى الأزاريطة فالشاطبى فالإبراهيمية إلخ ، فى سرعة خاطفة استجابت لها أعصابى المتوثبة . اخترقت هواء نشيطا لطيفا منعشا تحت سماء ظللها الغمام . وبدا الكورنيش المحفوف بزرقة البحر نظيفا نقيا ، قد تطهر من عرق المصيفين وصخبهم ، وقلت بتصميم لن أعود إليك يا طنطا إلا لأقبض نقودا أو لأبيع أرضا ، فلتذهبى بذكرياتك إلى الجحيم .

ملت إلى مستعمرة السيوف ثم مرقت إلى شارع أبى قير ، سيد الشوارع ، فازددت سرعة وطربا وتحديا . وتساءلت بأسى أين الأوروبيات .. أين الجمال .. أين سبائك الذهب . وحضرت الحفلة الصباحية بسينما مترو . غازلت فتاة فى الاستراحة أمام البوفيه . تناولنا

الغداء فى عمر الخيام . نمنا القيلولة معا فى مسكنها بالإبراهيمية . عدت إلى البنسيون عصرا وقد نسيت اسمها تماما . كان المدخل والصالة خاليين فأخذت دشا ، وتحت الماء تذكرت الفلاحة المليحة . ولما عدت إلى حجرتى طلبت قدح شاى لأراها من جديد . وقدمت لها قطعة شيكولاتة فترددت ولكنى ألححت عليها قائلا :

ــ كيف لا ونحن أسرة واحدة !

وجعلت أنظر إليها بسرور وهى تنظر إلى بلا ارتباك أو تنظر إلى الأرض . خائفة ؟.. ماكرة ؟.

ــ زهرة ، هل يوجد مثلك كثيرات فى الريف ؟

قالت متجاهلة مقصدى :

ــ لا عد لهم ولا حصر .

ــ ولكن كم منهن جميلة مثلك ؟!..

فشكرت لى هدية الشيكولاتة وذهبت . خائفة ؟. ماكرة ؟. على أى حال لست بحاجة إليها الآن . ومن حقها شىء من التمنع والدلال . ومن حقها كذلك أن أعترف بأنها فائقة الجمال .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

نظرت طويلا إلى صورة المدام القديمة حتى ضحكت متسائلة :

ــ تعجبك ؟

وقصت على قصة زواجها الأول ، ثم الثانى .

— كيف ترانى الآن ؟

فقلت وأنا أرى عروق معصمها النافرة وبشرتها المتكاثفة كقشرة السمكة :

— جميلة كما كنت !

فقالت بتسليم :

— المرض كبرنى قبل الأوان .

ثم بلا تمهيد :

— ولكن هل من الحكمة أن تجازف بنقودك فى مشروع جديد ؟

— لا بأس بذلك أبدا .

— وإذا استولت عليه الحكومة ؟

— توجد أعمال مضمونة .

خمنت أنها تتردد فى زحزحة البلاطة فقلت معابثا :

— ما أجمل أن نشترك معا فى عمل مثمر !

تظاهرت بالدهشة وقالت ضاحكة :

— أنا !.. أوه .. البنسيون لا يجيء إلا بالكفاف !

وانضم إلى مجلسنا قلاوون الصحافة . جاء متدثرا فى روب سميك . ووجدته بشوشا رغم شيخوخته الكريهة . وقال كمن يعلق على حالى وحاله :

ـــ الشباب يبحث عن المغامرة ، الشيخوخة تنشد السلامة .

تمنيت له صحة طيبة فسألني :

ـــ أجئت الإسكندرية من أجل المشروع ؟

فأجبته بالإيجاب فعاد يسأل :

ـــ وهل أنت جاد فى سعيك ؟

ـــ لقد ضقت بالفراغ .

فردد قائلا :

إن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أى مفسده

ولكنى أكره الشعر كما أكره سيرة الشهادات . وشعرت باستعلاء فارس تركانى يعيش بين رعاع . حق قد صقل الحظ بعضهم . نفس الحظ الذى ينفخ شمعتنا لتنطفئ . وقلت لنفسى إن الثورة ظاهرة غريبة مثل الكوارث الطبيعية . وإننى كمن يستقل سيارة فارغة البطارية .

وإذا بشاب جديد يظهر من وراء البارفان متجها نحو الباب الخارجى فدعته المدام للجلوس وقدمته إلينا قائلة :

ـــ مسيو منصور باهى .

مذيع فى محطة الإسكندرية . شهادة عالية جديدة ، ووجه وسيم دقيق ولكنه خلو من الرجولة . وهو أيضا من الرعاع المصقولين . وفى تحفظه ما يغرى بلكمه . وقد سألت المدام بعد ذهابه :

ـــ نزيل عابر أم مقيم ؟

فقالت بتيه :

ـــ مقيم يا عزيزى ، أنا لا ينزل عندى العابرون !

ورجعت زهرة من الخارج بحافظة من البلاستيك مثقلة بالبقالة . تابعتها وهى تمضى بنهم . البلد مكتظة بالنسوان ولكن البنت مثيرة لغرائزى .

فريكيكو .. لا تلمنى .

* * *

ـــ أخيرا وقعت فى الحب ؟

ـــ طانط .. لا حب ولا هيام .. لكنها فتاة ممتازة .. ومن لحمى ودمى .. وأنا أريد أن أتزوج .

ـــ على أى حال فأنت شاب تتمناك أى فتاة .

* * *

ليلة أم كلثوم متوجة حتى فى بنسيون ميرامار . أكلنا وشربنا وضحكنا . خضنا فى كل موضوع حتى فى السياسة . لكن الخمر نفسها لم تستطع أن تقهر عاطفة الخوف . صال عامر وجدى وجال فحكى على الربابة أساطير مجد لا شاهد عليها إلا ضميره . صمم الرجل الخرب على إقناعنا بأنه بطل قديم ، وإذن فلا يوجد إنسان عادى فى هذه الدنيا اللعينة . كذلك لا يوجد فرد واحد غير متحمس للثورة . حتى دللبة مرزوق ، حتى حضرتى . علينا بالحذر . سرحان منتفع ومنصور

غالبا مرشد ، حتى العجوز فمن يدرى ، والمدام نفسها لا يبعد أن تكلفها جهات الأمن بنوع من المراقبة . ولما جاءتنى زهرة بزجاجة صودا سألتها :

— وأنت يا زهرة .. تحبين الثورة ؟

فقالت المدام :

— أوه .. انظر إلى الصورة المعلقة فى حجرتها !

هل أعتبر ذلك إذنا بالتسلل إلى الحجرة !. ورغم أن الويسكى صهرنا فى بوتقة ألفة حميمة إلا أننى شعرت بأنها عابرة ، وستظل عابرة . لن تقوم صداقة حقيقية بينى وبين سرحان أو منصور . مودة عابرة ستمضى كما مضت البنت التى التقطتها من بوفيه مترو . وقلت لنفسى إن علىّ أن أجد عملا أفرغ فيه طاقتى وأملأ به وقتى وإلا تعرضت لأن أرتكب حماقة خرقاء أو جريمة قتل تناسب المقام . ومن المسلم به أننى سأبقى عازبا إلى الأبد كيلا أرتطم بلفظة « لا » مرة أخرى ، ولأنه لن توجد الفتاة الكفء لى فى مجتمعنا النامى . يمكن بعد ذلك أن أعتبر جميع النساء حريما متنقلا لمزاجى ، إلى خادمة ممتازة لملء فراغ شقتى المستقبلة . خادمة مثل زهرة . بل هى زهرة بالذات . وسوف ترحب بذلك بكل امتنان . ستمارس مهنة ست البيت مع الإعفاء من متاعب الحمل والولادة والتربية . وهى جميلة ، وسوف تروضها حقارة أصلها على تحمل نزواتى وغرامياتى اللامتناهية . وإذن فالحياة مقبولة رغم كل

شيء ، وواعدة بمسرات لا بأس بها .

وبالغ سرحان فى حكى النوادر حتى سقطت قلوبنا من الضحك . ومنصور قد ينفجر ضاحكا ثم سرعان ما يتقهقر إلى قوقعته .

* * *

اسمعوا .. اقرءوا .. هذا حكم بالإعدام .. هل يقف الإنجليز مكتوفى الأيدى حتى تجتاحنا الشيوعية !

* * *

بدأ الغناء . بدأ السماع . كالعادة شملنى توتر . أجل إنى أستطيع أن أتابع مقطعا أو مقطعين ثم يدركنى التشتت والملل . ها هم يهيمون فى الطرب ، وها أنا أغرق فى وحدة . والذى أدهشنى حقا أن المدام تحب أم كلثوم كالآخرين .. ولعلها لاحظت دهشتى فقالت :

— سمعتها عمرا طويلا .

وراح طلبة مرزوق يستمع بعمق ، ثم مال إلى أذنى هامسا :

— من نعمة الله أنهم لم يصادروا أذنى !

أما قلاوون فقد أغمض عينيه وراح يسمع أو راح فى سبات . استرقت النظر إلى زهرة فوق مقعدها عند البرافان . جميلة حقا ولكن هل تسمع ؟، فيم تفكر ؟، أى أمل يراودها ؟، هل تحيرها الحياة كما تحيرنا ؟. ومضت بغتة إلى الداخل والجميع بالطرب سكارى ، فقمت إلى الحمام لألتقى بها فى الطرقة . داعبت ضفيرها وهمست :

ــ لا شيء أجمل من الطرب إلا وجهك .

جفلت فى صلابة فتقدمت منها لأضمها إلى صدرى ولكنى توقفت أمام نظرة باردة منذرة .

ــ طال انتظارى يا زهرة !

تراجعت بخفة ثم ذهبت إلى مقعدها . حسن . فى سراى علام بطنطا عشرات من أمثالك ألا تفهمين ؟. أم ترين ثقافتى دون الكفاية يا روث الجاموسة ؟. رجعت إلى مجلسى . وبتأوهات مفتعلة إعجابا بغناء لا أتابعه داريت غيظى . ثم وثبت بى رغبة ملحة فى الجهر برأيى لأكون صادقا مع نفسى ولو مرة واحدة فى السهرة الطويلة ، ولكنى لم أفعل . وفى الاستراحة انتهزت فرصة التفرق المؤقت للمجتمعين فغادرت البنسيون .

انطلقت بالسيارة إلى كليوباطرة . كان الجو باردا عاصفا ولكننى كنت مشتعلا بحرارة الخمر . قصدت مسكن قوادة ملطية كنت أتردد عليها فى ليالى الصيف . وقد دهشت لحضورى بعد انتصاف الليل وفى ذلك الوقت الموحش المقفر من العام . وقالت لى :

ــ لا أحد فى البيت سواى ، ولا أستطيع أن أدعو واحدة الآن .

وقفت أمامى فى قميص النوم ، فى الخمسين أو أكثر ، بدينة مترهلة ، لا تخلو من مسحة أنثوية ، وثمة زغب يعلو شفتها كالشارب . دفعتها إلى حجرتها وهى تقول بدهشة :

ـــ ما هذا !.. لست مستعدة .

فقلت ضاحكا :

ـــ لا أهمية لذلك ، ولا أهمية لشىء .

ثم أمضينا ساعة أخرى فى ثرثرة حتى سألتنى عما جاء بى إلى الإسكندرية . ولما حدثتها عن هدفى قالت :

ـــ إنهم الآن يصفون أعمالهم ويذهبون .

فقلت لها وأنا أتثاءب :

ـــ لن أنشىء شركة ولا مصنعا .

ـــ إذن فابحث عن خواجا مناسب لتحل محله .

ـــ فكرة لا بأس بها ولكن علىّ أن أدرس كل شىء .

وفى طريق العودة هطل المطر بشدة . رأيت طريقى بصعوبة رغم نشاط ماسحة المطر . وقلت لنفسى بغضب إن الوقت يتبدد سدى !.

* * *

جميلة .. رغم رائحة المطبخ جميلة .

ـــ قطعتان من السكر من فضلك .

دعوتها بذلك لإذابة السكر فى الشاى ، وللبقاء دقيقة .

ـــ كنت جافة معى يا زهرة .

ـــ كلا ، ولكنك جاوزت الحدود .

ـــ أردت أن أعرب لك عن مشاعرى .



إذن فابحث عن خواجا مناسب لتحل محله

فقالت بصراحة حادة :

— إنى هنا للعمل وحده .

— هذا أمر مفروغ منه ..

— الظاهر أنك لا تصدقه ..

— أخطأت فهمى يا زهرة !

— إنك سيد طيب فكن طيبا معى ..

وذهبت فطاردها صوتى قائلا :

— سأحبك إلى الأبد !

* * *

هلم معى إلى رحلة غريبة . يوم رهيب ، زجر وتأنيب من أخى ، تأنيب من عمى ، المدرسة المدرسة ، بنا إلى الطريق الزراعى ، رحلة طويلة وغريبة ، شمالا وجنوبا ، ليلا ونهارا ، عند كل بلدة نتزود بالطعام والشراب ، لم أعد قاصرا ..

* * *

إنى رأيتكما معا .

فى الطرقة أمام الحمام رأيتكما معا . إذن فهو ذلك السرحان . قرص خدك بحنان . لم يرتفع رأسك فى غضب . وجهك الجميل ابتسم وشع منه نور أسمر . وتحركت ضفيرتك فى دلال كالحال فى حقول الذرة . سبقنى الفلاح بأيام . لا ضير من ذلك ألبتة إذا روعيت العدالة فى

التوزيع . ولو يكن لى يوم وله يومان .

* * *

ضحكت طويلا وأنا أستقل الفورد . وهتفت :

فريكيكو .. لا تلمنى .

* * *

أوصلت طلبة مرزوق بالسيارة إلى التريانون فدعانى للجلوس معه . مررنا فى طريقنا إلى مجلسنا بسرحان البحيرى وهو ينفرد بشخص آخر فتبادلنا التحية . سألنى طلبة كيف أمضى وقتى فأجبته بأننى أتجول بالسيارة وأفكر فى المشروع الجديد . سألنى :

— ألك خبرة فى نشاط معين ؟

أجبت بالنفى ، فقال :

— لا تلق بنقودك فى بئر

— ولكننى مصمم ..

— تزوج لتتعلم الحكمة !

فقلت وأنا أكظم غيظى متورما :

— إننى مصمم على العزوبة والمشروع .

أشار صوب سرحان البحيرى وقال :

— ولد ذكى ..

فسألته باهتمام :

— أعرفت عنه شيئا ؟

— ثمة صديق قديم على صلة بالشركة يصفونه هناك بأنه شاب ثورى ، وفى هذا الكفاية ..

— أتظنه مخلصا ؟

— نحن نعيش فى غابة يتعارك وحوشها على أسلابنا ..

داخلنى ارتياحٌ خفى فمضى يقول :

— ما تحت البدلة إلا مجنون بالترف !

فقلت بتسليم وأنا مطمئن إلى وحدتنا :

— ولكن ثمة إصلاحات لا يمكن إنكارها ؟

حرك شدقيه حركة غريبة وقال :

— قصد بها أناس لم يرتقوا بعد إلى درجة الوعى . وهم — مثلنا — تحت رحمة البدل .

ولما آن لى أن أرجع إلى البنسيون لحق بى سرحان فى الخارج فأركبته معى فى السيارة . كأنما خلق اللعين لكى يألف ويؤلف . ورغم ازدرائى له فإنى أبقى عليه لعلى أنتفع به فى وقت الحاجة . وقد لكزته بكوعى وأنا أقول ضاحكا :

— حلال عليك يا عم ..!

نظر إلى باسما ومستطلعا فقلت :

— زهرة !

رفع حاجبيه الكثيفين ولكنه أرخى عينيه فى تسليم ، فقلت :

ـــ إنك فلاح كريم فلا تبخل على ..

فقال بوجوم :

ـــ الحق أنى لا أفهمك ..

ضحكت ساخرا وقلت :

ـــ سأكون صريحا معك كما يجدر بالأصحاب ، أتعطيها نقودا أم تعطى المدام ؟

فقال بإنكار :

ـــ لا .. لا .. ليس الأمر كما تتصور ..

ـــ إذن فكيف أتصوره على حقيقته ؟

ـــ إنها فلاحة طيبة ، ليست ..، صدقنى ..

ـــ ليكن . الظاهر أنى استوقفت سيارة « ملاكسى » بظـن أنها تاكسى ..

فريكيكو ، لا تشغل بالك بأشياء تافهة . الخطأ أننى صادقت زمنا عدوا وأنا أحسبه الصديق . ولكننى سعيد بحريتى . لقد قذفت بى طبقتى إلى الماء والقارب يميل إلى الغرق ، ولكننى سعيد بحريتى . لا ولاء عندك لشىء . سعادة عظمى ألا يكون لك ولاء لشىء . لا ولاء لطبقة أو وطن أو واجب . لا أعرف عن دينى إلا أن الله غفور رحيم .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

انفجرت فى الخارج ضجة لا عهد للبنسيون بها .

كنت مستيقظا لتوى من القيلولة فخرجت إلى الصالة . وضح لى أن ثمة معركة فى المدخل . نظرت من فرجة البارفان فرأيت مشهدا مسليا حقا . امرأة غريبة ممسكة بتلابيب صديقنا البحيرى تنهال عليه ضربا وسبا . وزهرة واقفة متوترة الأعصاب تنطق بكلمات سريعة وتحاول التخليص بينهما . المرأة تنقض على زهرة فجأة ولكن زهرة أثبتت أنها مصارعة ذات جبروت . لكمتها مرتين ، وفى كل مرة أطاحت بها حتى ألصقتها بالجدار . إنها جميلة ولكنها خفير ذو قبضة حديدية . لبثت متواريا لأتيح لنفسى أكبر قدر من تسلية فريدة حقا . ولكنى عندما ترامى إلى صرير أبواب خرجت من مكمنى ، فأخذت المرأة الغريبة من معصمها ، وذهبت بها خارجا وليس علىّ — عدا البيجاما — إلا الروب . دفعتها برقة أمامى ، معلنا لها عن أسفى ، واضعا نفسى فى خدمتها . كانت تغلى بالغضب غليانا ، وتسب وتلعن ، ولم يبد عليها أنها أحست بوجودى بعد . إنها امرأة لابأس بها وقد أوقفتها عند بسطة السلم بالدور الثانى وأنا أقول :

— انتظرى لحظة ، يجب أن تصلحى حالك قبل الخروج إلى الشارع ..

سوت شعرها ، وشبكت طوق فستانها الممزق بمشبك من شعرها ، ثم أعطيتها منديلا معطرا لتمسح به وجهها .

ـــ سيارتى أمام العمارة سأوصلك إذا سمحت بها ..

نظرت إلى لأول مرة . شكرتنى بعجلة ، ثم نزلنا معا جلست فى السيارة إلى جانبى فسألتها عن المكان الذى تود الذهاب إليه فتمتمت بصوت مبحوح :

ـــ الأزاريطة ..

سرنا تحت سماء ملبدة بالغيوم وقد عاجلنا الظلام قبل أوانه . قلت مستدرجا :

ـــ لعنة الله على الغضب ..

فهتفت :

ـــ السافل الحقير !

ـــ يبدو أنه فلاح طيب ؟

ـــ سافل حقير ..

تساءلت بسخرية خفية :

ـــ خطيبك ؟

لكنها لم تجب . ما زالت مشتعلة . وهى امرأة لا بأس بها ، ومحترفه بطريقة ما على وجه اليقين . أوقفت السيارة أمام عمارة بشارع الليدو فقالت وهى تفتح الباب :

ـــ أشكرك ، إنك رجل كريم ..

ـــ لا أريد أن أتركك وحدك لأطمئن عليك !

ـــ أشكرك ، إنى على خير حال ..

ـــ إذن فهو الوداع ؟

مدت يدا لتصافحنى ثم قالت :

ـــ إنى أشتغل فى الجنفواز !

درت بالسيارة وأنا متحمس لمعرفة مزيد من المعلومات بيد أن تحمسى فتر قبل أن أبلغ العمارة . الأمر واضح وتافه . عشق وهجر ثم معركة تقليدية . وها هو يلقى زهرة فيبدأ حكاية جديدة . والمرأة لا بأس بها وقد أحتاج إليها ذات ليلة .ولكن ما الذى دفعنى إلى تكبد مشاق هذه الرحلة السخيفة ؟!

فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

السيارة تطير فوق أرض الشوارع السنجابية ، المصابيح وأشجار الكافور تركض فى الاتجاه المضاد . السرعة الانسيابية تنعش القلب فتنفض عنه الخمول والملال . ويزمر الهواء ويرعش الأغصان فتتشتت فى انتشارات جنونية . أو ينهمر المطر فيغسل الزرع فتضىء الحقول بخضرة متألقة . من قايتباى إلى أبى قير ، من بحرى حتى السيوف ، البطن والأطراف ، وكل أرض ممهدة : أهيم فوقها بسيارتى .

والوقت يمر ولا خطوة جدية أخطوها لتحقيق المشروع .

وخطر لى أن أقوم بجولة استكشافية فى مراكز الإشعاع الأصيلة .

زرت قوادة قديمة بالشاطبى فجاءتنى بفتاة مقبولة للصبوح . وتناولت الغداء عند قواده ثانية باسبورتنج فأمدتنى بامرأة أرمنية فوق المتوسط . أما قوادة سيدى جابر فأهدت إلى فتاة رائعة من أم إيطالية وأب سورى فأصررت على دعوتها إلى سيارتى حذرتنى من الغيوم المنذرة بالمطر فقلت لها إنى أتمنى أن يهطل المطر وفى الطريق الزراعى إلى أبى قير هطل المطر واختفى البشر فأحكمت إغلاق النوافذ ورحت أنظر إلى الماء المنسكب والأشجار الراقصة والخلاء النقى الذى لا نهاية له وقد ذعرت الجميلة وقالت إن هذا جنون فقلت لها تصورى مخلوقين مثلنا عاريين تماما فى سيارة وآمنين رغم ذلك من أى تطفل يتبادلان القبل على انفجارات الرعد ووميض البرق وانهلال المطر فقالت إنه المحال فقلت ألا تودين أن تخرجي اللسان للدنيا ومن عليها وأنت فى حماية هذه الغضبة الكونية فقالت محال .. محال .. فقلت ولكنه سيتحقق بعد ثوان وشربت من فوهة الزجاجة وكلما جعجع الرعد استحثثته على المزيد وتوسلت إلى السماء أن تفرغ مدخرها من الماء فقالت الجميلة قد تتعطل السيارة فقلت لها آمين .. فقالت وقد يدركنا الظلام فقلت وليدم إلى الأبد فقالت إنك مجنون .. مجنون .. فصحت بأعلى صوتى : فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

على مائدة الإفطار بلغتنى الأنباء العجيبة على القرار الذى اتخذته زهرة

للتعلم . سمعت تعليقات شتى لم تخل من مزاح ، ولكن غلبت عليها روح تشجيع . حز فى نفسى الخبر فنكأ الجرح القديم . لقد نشأت بلا رقيب حقيقى فاجتاحنى اللهو . ما أسفت على شىء وقتذاك ولكننى أدركت متأخرا أن الزمن عدو وليس بالصديق الذى توهمته . وها هى الفلاحة تقرر أن تتعلم . وقد شرحت لى المدام ظروفها ما بين القرية والإسكندرية . توكد لى أنها ليست من توابع المدام ، ولعلها ما تزال عذراء إلا يكن سرحان ممن يضيقون بالعذارى ، ولكننى قلت للمدام بخبث :

ــ ظننت زهرة ..

وأشرت بيدى إشارة ، فقالت :

ــ لا .. لا ..

فتجاهلت الموضوع بغتة قائلا :

ــ يجب أن تفكرى فى المشروع المشترك !

فتساءلت بدهاء قوادة :

ــ من أين لى بالمال ؟

فهمست باهتمام مصطنع :

ــ ماذا لو أردت أن أدعو صديقة إلى هنا ؟

هزت رأسها آسفة وقالت :

ــ البنسيون مشغول كله ، وإذا سمحت لواحد فكيف أرفض

لآخر ؟، ولكن يمكن أن أدلك على مكان إذا أردت ..

ولما صادفت زهرة فى الصالة هنأتها على قرارها وقلت لها ضاحكا :

ـــ شدى حيلك ، فعندما يتحقق مشروعى سأكون فى حاجة إلى سكرتيرة !.

فابتسمت فى ابتهاج حتى أطلت آى الملاحة من قسماتها . الحق أن رغبتى فيها لم تمت . ومع سابق علمى بأننى سأشبع منها فى أسبوع إلا أنه أسبوع ضرورى فيما بدا لى .

* * *

راحت السيارة تجوب الشوارع والأحياء . فى جو صاف هادىء معتدل لدرجة أثارت أعصابى . ولكى أستمتع بأكبر قدر من السرعة الجنونية بلا عائق اتجهت إلى الطريق الصحراوى فانطلقت فيه بسرعة مائة وعشرين ك ، مقدار ساعة ، ثم رجعت بنفس السرعة . تناولت الغداء فى بام بام » . والتقطت فتاة لدى مغادرتها لمحل حلاق . ثم رجعت إلى البنسيون حوالى العصر . رأيت زهرة جالسة إلى فتاة بالمدخل فأدركت من النظرة الأولى أنها المدرسة . جالست المدام واسترقت إلى المدرسة النظر . لا بأس بها . ثمة احديداب خفيف لا يكاد يلحظ ، وفطس بالأنف مقبول بل ومثير . من المؤسف أن فتاة مثلها لا تقبل ليلة حب عابرة . لا بد لأمثالها من علاقة وطيدة طويلة . وقد لا ترضى بذلك أيضا فترمى بنظرها البعيد إلى الزواج متخطية دعوة

الثورة إلى تحديد النسل .

تم التعارف عن طريق المدام . وقد قدمتنى كعادتها بالكامل ، أى بالمائة فدان والمشروع ، فسررت لذلك وحمدت لها لباقتها المستقاة من خبرة السنين . وركزت فى جولاتى على حى محرم بك حيث تقع مدرستها . وأثمرت خطتى فرأيتها مرة قبيل العصر واقفة فى محطة الباص . أوقفت السيارة ودعوتها إلى الركوب . ترددت قليلا ولكن شجعها على قبول دعوتى تلبد السماء بالغيوم . أوصلتها إلى عمارتنا وأنا أشكو لها وحدتى فى الإسكندرية ، وحاجتى إلى المشورة والرأى فيما يتعلق بمشروعى ، وقلت لها وأنا أودعها :

ـــ أظننى بحاجة إلى لقاء آخر ؟.

فقالت بترحيب :

ـــ تفضل بزيارتنا !.

الحق يا فريكيكو أن سنى وثروتى يرشحاننى بمنطق حاسم للزواج . لذلك يتعذر على أن أرافق مدرسة أو طبيبة أو مذيعة أو موظفة . وعلى إن أردت توسيع مجالى الحيوى أن أخدع الأبصار بدبلة زواج وهمى .

ولم أجد ما أشغل به نفسى بقية اليوم إلا أن قصدت القوادة المالطية بكليوباطرة فطلبت منها أن تدعو أكبر عدد ممكن من بناتها ، وسهرت سهرة عجيبة معربدة موشاة بأبهج الملافات التى لم يعرف التاريخ لها مثيلا منذ عهد خليفتنا خالد الذكر هرون الرشيد .

ـــ إنه لم ير أمه .. وتركه أبوه وهو فى السادسة .. لذلك لا أقسو عليه ..

كان يتكلم بهدوء أما أخى فكان ينتفض من الغضب .

* * *

حوصرت بالعجائز . الواقع أننى لا أحب قلاوون الصحافة وهيهات أن أوفق إلى خير ما دمت أصبح على وجهه . وسألنى طلبة مرزوق عن مدى تقدمى فى مشروعى . وتشممت فى الجو رائحة بخور فتساءلت عنها فضحك طلبة بك وقال :

ـــ كان يجب أن ترى المدام وهى تطوف بالحجرات حاملة المبخرة !.

نظرت إليها قائلا :

ـــ إذن فأنت تحبين أم كلثوم وتؤمنين بالبخور ؟.

ابتسمت ابتسامة عابرة لشدة متابعتها لأغنية يونانية . وقلت لطلبة بك :

ـــ يجب أن أجد خواجا ممن ينوون الهجرة لأشترى عملة .

ـــ فكرة حسنة ، ما رأيك يا ماريانا ؟

أجابت بعجلة حتى لا تنقطع عن الأغنية :

ـــ نعم ، انتظر ، أظن صاحب مقهى ميرامار يفكر فى ذلك .

فسألتها :

— ماذا تعنى الأغنية ؟

أجابت بدلال :

— عن البنت فى سن الزواج ، ماما تسألها وهى تجيب معددة المزايا التى تتطلبها فى العريس !

نقلت بصرى بين صورة الكابتن وصورة شبابها فغمغمت :

— كان من الممكن أن أبقى سيدة حتى اليوم ..

— إنك سيدة تماما .

فقالت محتجة :

— أعنى سيدة فى قصر الإبراهيمية !

والتفت نحوى قلاوون الصحافة وقال :

— لا تدع الوقت يمر دون أن تفعل شيئا ..

لعنته فى سرى . كان الجو قارص البرودة صامتا . وكنت على موعد من الفتاة الإيطاسورية فى سكن القوادة بسيدى جابر .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

علمت بزيارة شقيقة زهرة وزوجها على مائدة الإفطار

— قررت البقاء معنا بصفة نهائية ..

قالت المدام ذلك بارتياح ، فقلت :

— لنحمد الله على أن المقابلة مرت بسلام ، أعنى دون شروع فى

القتل !.

ثم قلت لسرحان البحيرى ساخرا :

ــ الظاهر أن البحيرة خرعة !

ــ خرعة ؟!

ــ يقال إن قربها من الإسكندرية قد أضعف من ضراوة تقاليدها الريفية ..

فقال بصوته الرنان متباهيا :

ــ ذلك يعنى أنها أعظم تمدينا من سائر الريف !

* * *

ركب طلبة مرزوق معى لكي أوصله إلى فندق وندسور لمقابلة صديق قديم . إنه الشخص الوحيد الذى أضمر له حبا واحتراما . وهو يقوم أمام عينى كتمثال أثرى لملك قديم ، دالت دولته وولى زمانه ، ولكنه يحتفظ بكافة مزاياه الذاتية . قلت له والخبث يسيطر على أفكارى :

ــ ألم يكن الأجدر بالفلاحة أن تذهب مع أهلها ؟

فقال ضاحكا :

ــ كان الأجدر بها ألا تهرب من أول الأمر .

ــ أعنى أن لديها من الأسباب ما يمنعها من العودة حتى لو تمنتها !

ــ تقصد الفتى البحيرى ؟

ـــ ليس هذا بالضبط ما أعنيه ، ولكنه يرجع إليه على أى حال !.

ضحك الرجل وقال :

ـــ محتمل جدا ، ومحتمل أنه برىء مما تظن ، وأن آخر كان وراء الدافع لهربها من القرية !.

وقد تضاعف سوء ظنى عندما علمت ـــ عقب ذلك بأيام ـــ برفضها الزواج من محمود أبو العباس بياع الجرائد . وكان محمود قد شاورنى فى الأمر ـــ كزبون قديم له ـــ قبل أن يقدم على الذهاب إلى المدام لطلب يد الفتاة . وعندما وقفت أمام معرضه فى اليوم التالى لمسعاه الفاشل كنت واثقا من مناقشته للموضوع ومتأهبا له . كان يبدو ممتعضا وحانقا . تبادلنا نظرات تغنى عن قول الكثير ، ثم قلت له مواسيا :

ـــ هاك عينة من بنات اليوم .

فقال بغضب :

ـــ هيهات أن تجد مثل الحمقاء ..

ـــ سيعوضك الله بخير منها ، وإن أردت الحق فليس البنسيون بالمكان المناسب لاختيار عروسك ..

ـــ ظننتها بنتا طيبة ..

ـــ أنا لم أقل إنها ليست كذلك ولكن ..

فسألنى باهتمام : ـــ ولكن ماذا ؟.

ـــ ماذا يهمك منها وقد انتهى أمرها بالنسبة إليك ؟.

ـــ ليرتاح قلبى .

ـــ أيرتاح قلبك لو قلت لك إنها تحب سرحان البحيرى ؟

ـــ المجنونة !.. وهل سيتزوج الأستاذ سرحان منها ؟

فقلت وأنا أودعه :

ـــ تكلمت عن الحب لا الزواج !.

كنت أكره سرحان من أول يوم . أجل قد تهبط كراهيتى له لدرجة الصفر فى الأوقات التى يفتح لى قلبه المطبوع على الألفة والمعاشرة ولكن سرعان ما يرجع الحال إلى أصله . ولا دخل لزهرة فى هذه الكراهية فهى أتفه من أن تجعلنى أكره أو أحب إنسانا . ربما لصراحته العمياء أحيانا ، وربما لإصراره على الإشادة بالثورة لمناسبة ولغير ما مناسبة . لذلك فكثيرا ما أرغمنى على مجاراته ولو بالسكوت . وقد فاض بى الكيل مرة فقلت له :

ـــ نحن مؤمنون بالثورة ولكن لم يكن ما سبقها فراغا كله .

فقال بعناد مثير :

ـــ بل كان فراغا ..

ـــ كان الكورنيش موجودا قبلها ، كذلك جامعة الإسكندرية !.

ـــ لم يكن الكورنيش للشعب ، ولا الجامعة ..

ثم سألنى ضاحكا ، وبلا حقد ظاهر :

ـــ خبرنى لم تملك وحدك مائة فدان على حين أن كل ما تملكه أسرتى عشرة فقط ؟.

فسألته وأنا أكظم غيظى :

ـــ ولم تملك عشرة على حين لا يملك ملايين من الفلاحين قيراطا واحدا !!.

* * *

ـــ مهما تقل فلن أصدق كلمة واحدة مما تقول ، إن رفض مرفت لك أطاح بعقلك ، ولا تصدق ما يقال عن العدالة والاشتراكية ، المسألة تتلخص فى كلمة واحدة : القوة ، إن من يملك القوة يملك كل شىء ، ولا بأس بعد ذلك من أن يتغنى أمام الناس بالعدالة والاشتراكية ، وإلا فخبرنى بالله هل رأيت أحدا منهم يسير فى الأسواق شبه جائع مثل سيدنا عمر ؟!.

* * *

على أى حال سرعان ما بلغنى الخبر اللذيذ عن القتال بين محمود أبو العباس وسرحان البحيرى يا بصل !. وتجاهلت الأمر احتراما لصمته ، بل انتهزت فرصة اجتماعى به فى مدخل البنسيون فسألته الرأى عن المشروع ، وإذا به يقول لى فى اهتمام :

ـــ اصرف النظر عن مشروع المقهى وما شاكل ذلك ، إنك ابن ناس ، وعليك أن تختار مشروعا مناسبا .

— مثل ماذا ؟

— أنا أقول لك ، مشروع تربية دواجن وعجول مثلا ، إنه يدر ذهبا .

ثم بعد تفكير قليل :

— ممكن أن نؤجر قطعة أرض فى منطقة سموحة ، وممكن أن أساعدك بما لى من خبرة وأصدقاء وربما شاركتك إذا ما أسعفتنى الظروف .

* * *

ما أضيق الإسكندرية فى عينى سيارة مجنونة . إنى أمرق فيها كالهواء ولكنها انقلبت علبة سردين . الليل يتبع النهار فى إصرار غبى ولكن لا شيء يحدث على الإطلاق. ورغم أن السماء تتزين كل يوم برداء . والطقس كالبهلوان لا يمكن التنبؤ بحركته التالية ، والنساء يقبلن فى ألوان لا حصر لها ، فلا شيء يحدث على الإطلاق . الكون فى الحقيقة قد مات وما هذه الحركات إلا الانتفاضات الأخيرة التى تند عن الجثة قبل السكون الأبدى .

وتذكرت الجنفواز .

إنه يقع على الكورنيش متحديا البحر والشتاء ولكن بابه يقع فى شارع خلفى ضيق . له مسرح للغناء والرقص ، وتتوسطه باحة للرقص المشترك ، وينتشر اللون الأحمر الكابى فى السقف والجدران والمصابيح كأنه مأوى للجان ، ومن نظرة إلى فتياته وزبائنه يتسرب إلى النفس

إحساس محتوم بأنه ماخور .

رأيت فتاة البحيرى ترقص رقصة فولكلورية مبتذلة . دعوتها إلى مائدتى فلم تعرفنى بادئ الأمر ثم اعتذرت بحالها يوم التعارف . وسرعان ما قالت إنها انتظرت مقدمى طويلا فاعتذرت بضيق الوقت وكثرة المشاغل . عرفت أن اسمها صفية بركات والله أعلم باسمها الحقيقى وهى أجمل من المدرسة ولكن يعيبها ميل إلى البدانة ، وتستقر فى وجهها المليء نظرة محترفة . شربت كثيرا حتى أوشكت أن أفقد الوعى ثم دعوتها إلى سيارتى ومضيت بها إلى شارع الليدو بالأزاريطة ، ولما هممت بمصاحبتها اعتذرت بعذر قهرى فرجعت إلى البنسيون وأنا من السكر وسوء المآل فى حال .

التقيت وأنا ذاهب إلى حجرتى بزهرة وهى راجعة من الحمام فى قميص النوم . اعترضت سبيلها مفتوح الذراعين . توقفت متوثبة . اقتربت منها فقالت بحزم :

ـــ ابعد ..

أشرت بأصبعى إلى حجرتى فقالت متوعدة :

ـــ ابعد واذهب لحالك .

انقضضت عليها بالرغبة والسكر فضربتنى بقبضتها فى صدرى ضربة مذهلة أشعلتنى بالغضب . جن جنونى فلطمتها بوحشية . وصممت على الانقضاض حتى النهاية ولكن يدا وضعت على كتفى وجاءنى

صوت سرحان اللاهث وهو يقول :

ـــ حسنى .. أجننت ؟

دفعته بوحشية ولكنه شد على كتفى قائلا :

ـــ ادخل الحمام وضع إصبعك فى فمك .

استدرت نحوه ولطمته بشدة على غرة منه. تراجع وهو يهدر ثم لطمنى بقوة. وإذا بالمدام قادمة وهى تحبك حولها الروب متسائلة فى جزع:

ـــ ماذا يحدث ؟!

ثم دخلت بينى وبين سرحان وهى تقول بغضب :

ـــ لا ، هذا تخريب ، ولا يمكن أن أقبله .

* * *

الملائكة تسبح أو ترقص فى السقف . المطر يعزف فوق النوافذ وهدير الأمواج يصك الأذنين بانفجارات معركة محتدمة . أغمضت عينى مرة أخرى تحت لطمات الصداع . تأوهت ثم لعنت كل شىء . ثم اكتشفت أننى نمت بقية الليل بالبدلة والمعطف والحذاء . وانهالت على ذكريات الليلة الماضية فلعنت كل شىء .

وجاءت المدام بعد أن أذنت لها بالدخول. وقفت تنظر إلى وأنا أتزحزح متثاقلا متكاسلا إلى الوراء لأجلس مستندا إلى رأس الفراش، وقالت:

ـــ تأخرت عن موعدك ؟

ثم غاصت فى المقعد الكبير وهى تقول فى عتاب :

ــ ها هى عاقبة السكر الشديد .

تلاقت عينانا فابتسمت وقالت :

ــ إنك أعز من عندى ولكن لا تعد للسكر .

رفعت عيني إلى السقف المزركش بصور الملائكة وتمتمت :

ــ إنى آسف .

ثم بعد فترة صمت :

ــ يجب أن أعتذر لزهرة .

ــ حسن ولكن عدنى بأن تسلك السلوك اللائق بأسرتك.

ــ اعتذرى عنى لزهرة حتى أعتذر لها بنفسى .

وقد انقطع ما بينى وبين سرحان أما زهرة فصالحتها بعد إباء وتمنع . ولا أنكر أن مخاصمة سرحان قد خلقت فراغا فى نفسى . الآخر ــ منصور باهى ــ لا أكاد أعرفه ، ولا علاقة لى به سوى كلمات عابرة نتبادلها على مائدة الإفطار فلا يبقى منها فى الذاكرة شىء . إننا نتبادل ــ بلا شك ــ كراهية صامتة . وإنى أحتقر انطواءه وغروره وأنوثته وما يحلى به نفسه من أدب ظاهرى رخيص . وقد سمعته مرة فى الراديو فهالنى صوته ــ الكاذب مثله ــ الذى تحسبه صادرا عن فارس خطيب . ومن عجب أنه لم تنشأ مودة بينه وبين أحد سوى قلاوون الصحافة مما جعلنى أقطع بأن العجوز الأعزب لوطى سابق !

يحسن بى ألا أغادر الحجرة !. ولكن ثمة حادث سعيد يقع فى الخارج . فى حجرة البحيرى ؟!. أجل . مناقرة .. بل مشاجرة .. بل معركة .. بين روميو البحيرى و جولييت البحيرية .. ما معنى ذلك ؟ هل طالبته بإصلاح غلطته ؟. هل رام التملص والهرب كما فعل مع صفية ؟. إنه لأمر بالغ اللذة ولكن يحسن بى ألا أغادر الحجرة . أين كانت تختبئ جميع تلك المسرات ؟. فريكيكو انتبه جيدا واستمتع باللحظة البديعة . وصاح الصوت الرنان :

ـــ أنا حر .. أتزوج بمن أشاء .. سأتزوج من علية .

يا سيد يا بدوى !. علية !. الأستاذة ؟. هل لبى الدعوة لزيارة بيتها ؟. هل تحول من التلميذة إلى الأستاذة ؟. اشهد يا فريكيكو . أى يوم بهيج يا إسكندرية . لتحيا الثورة . ولتحيا قوانين يوليو . ها هو صوت المدام يرطن بالعربية . وها هو صوت المذيع الهمام بلحمه ودمه ، أخيرا تنازل بالاهتمام بشئون الرعية . وسيجد ولا شك حــلا لهذه المشكلة الريفية . يا أهلا بالمعارك . فريكيكو .. يجب أن تتحرك . احذر أن تسبقك الأحداث .

وقد سمعت القصة مرة أخرى على ربابة المدام . وقالت لى فى الختام :

ـــ لقد طردته ، ما كان يجب أن يقيم بيننا يوما واحدا !

أثنيت على شهامتها ، ثم سألت عن زهرة فقالت بأسف :

ـــ معتكفة فى حجرتها متوعكة .

أجل . القصة القديمة . المتجددة مثل فصول السنة . وقد هنأ البحيرى بالطرد . فاز بترقية إلى الدور الخامس . ولا يدرى أحد أين ينتهى به الطريق .

وقالت المدام :

— إن صاحب الميرامار يفكر جديا فى بيعها .

فقلت بثقة :

— إنى على استعداد لمفاوضته .

وغادرت البنسيون مدفوعا برغبة حامية فى مسح الإسكندرية بالطول والعرض .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

لأول مرة أراها منهزمة منسحقة . شحب لونها الخمرى وفقدت عيناها العسليتان الرونق والبريق . صبت لى الشاى وهمت بالانصراف فرجوتها أن تبقى . كان الهواء يزأر فى هبات متقطعة ، وجو الحجرة القاتم يشى بتجمع السحب .

— زهرة .. الدنيا مليئة بالسفالات ولكنها لا تخلو من خير ..

لم يبد عليها أنها تهتم بالإصغاء إلىّ أو أنها تهتم بأى شيء .

— انظرى ماذ فعلت أنا ، ضاق بى العيش بين أهلى فى طنطا فهاجرت إلى الإسكندرية .

لم تبتس ولا دبت فيها نسمة اهتمام .

ـــ أقول لك إنه لا حزن يدوم ولا فرح ، وأن على الإنسان أن يجد طريقه ، وإذا ساقه الحظ إلى طريق مسدودة فعليه أن يتحول إلى أخرى .

ـــ كل شيء طيب ، لست آسفة على شيء .

ـــ بل أنت حزينة ، حزينة جدا يا زهرة ، ولك حق ، ولكن عليك أن تختارى النجاة ، هذا الاختيار نصف النجاة إن لم يكن النجاة كلها .

قاومت التأثر بإرادة جبارة طبعت وجهها بطابع دميم عابر ، فقلت :

ـــ أصغى إلى ، إليك اقتراحا ، لا تبتى فيه برأى الآن ، ولكن فكرى فيه على مهل .

وتريثت لحظات ثم قلت :

ـــ عما قريب سيكون لدى عمل .

تململت ، فقلت :

ـــ ستجدين عندى إذا شئت وظيفة محترمة !

ارتسم سوء الظن فى عينيها فقلت :

ـــ هذا المكان لا يصلح لك .. بنت محترمة بين أشكال وألوان من مريدى اللهو والتسلية ، من يقر ذلك ؟

لم تأخذ كلمة من قولى مأخذ الجد ، ذلك واضح جدا ، فقلت :

ـــ ستكونين عندى فى حصن .. عمل شريف وحياة ممتازة

غمغمت بما لم أسمع ثم حملت الصينية وذهبت .

غضبت . عليها وعلى نفسى غضبت لحد المقت . شهوات المحرومين أعمتها عن حقارتها . ملعونة الأرض التى أنبتتك فى طينها . وقلت بذلة ومرارة :

فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

سهرت بين الجدران الحمراء الكابية فى الجنفواز . دعتنى صفية إلى المبيت فى بيتها فلبيت . عرضت همومى للمناقشة وأنا سكران تماما . ولما جاء ذكر المشروع وثب صوتها قائلا :

— جاء الفرج !

ثم قالت وهى تشعل سيجارة :

— الجنفواز .. صاحبه يرغب فى بيعه .

فقلت بلسان مخمور :

— ولكنه حقير كئيب !

— فكر فى موقعه الممتاز .. ممكن أن يصير ملهى ومطعما ممتازا !.

وأكدت أنه يدر ربحا كثيرا وهو بحالته الراهنة وتنبأت له بمزيد من النجاح إذا جدد . قالت :

— أنت ابن ناس ، وسيضع البوليس ذلك فى اعتباره ، وعندى خبرة لا حد لها ، الصيف مضمون ، وبقية العام مضمونة كذلك بفضل

الليبيين الذين يفدون علينا محملين بنقود البترول .

قلت وكأنى فى حلم :

— رتبى لى مقابلة مع الخواجا .

— فى أقرب فرصة وسوف أختص أنا بالجانب النسائى .

— اتفقنا .

قبلتنى وهى تتساءل :

— لم لا تجىء للإقامة معى ؟

— فكرة ، ولكن يجب أن تعرفينى على حقيقتى من أجل تعاون دائم ، أنا لا أعرف ذلك الشىء الذى تسمونه الحب .

* * *

حوالى العاشرة صباحا عدت إلى البنسيون . التقيت بسرحان البحيرى فى مدخل العمارة ، تجاهلته كما تجاهلنى ووقفنا ننتظر هبوط المصعد وأنا أقول لنفسى لعله جاء لزيارة آل عروسه . وفجأة التفت نحوى وقال :

— إنك كنت السبب فيما بينى وبين محمود أبو العباس !

تجاهلته تماما كأننى لم أسمع صوتا ، فاستمر يقول :

— لقد اعترف لى بذلك .

ولما أصررت على تجاهله فى احتقار وبرود قال بعصبية :

— على أى حال فقد خلا سلوكك من شهامة الرجال .

تحولت إليه بغضب صائحا :

ـ اخرس يا ابن الكلب !

وسرعان ما تبادلنا الضربات حتى جاء البواب ورفاق له فخلصوا بيننا . توقف الضرب وبدأ السباب . حتى هتف :

ـ سأؤدبك .. انتظرنى .

فهتفت بدورى :

ـ تعال لأريحك من حياتك القذرة .

* * *

فى مجلس الأصيل حول الراديو وجدت المدام وطلبة بك ، فقالت لى المدام :

ـ اشترك معنا فى التفكير ، كيف نقضى ليلة رأس السنة ؟

ثم أشارت إلى طلبة بك وقالت :

ـ من رأيه أن نسهر فى المونسنيير ولكن عامر بك يفضل البقاء هنا ؟

ـ أين عامر بك ؟

ـ إنه معتكف ، عنده برد .

ـ دعيه فى اعتكافه ، ولنذهب إلى المونسنيير ، يجب أن نلهو بعنف حتى الصباح !

وبعد صمت قليل قلت لها :

ـ أخيرا تحقق المشروع !



لم لا تجيء للإقامة معي ؟

وقصصت عليها الخبر حتى عكس وجهها خيبة أمل واضحة ، ثم قالت :

— لا تتسرع .. يجب أن تفكر .

— كفانى تفكير .

ثم صرحت قائلة بعد تردد :

— مقهى الميرامار أفضل .. وإنى أفكر جديا فى مشاركتك .

فقلت ضاحكا :

— ربما فكرت فى التوسع مستقبلا .

وانبعثت من أعماقى رغبة جامحة فى الاستمتاع لأقصى حد بليلة رأس السنة الجديدة .

* * *

وقد تعرفت بصاحب الجنفواز فى نفس الليلة فى حجرة مكتبه بالملهى . وتم الاتفاق على البيع من حيث المبدأ ، ثم دعانى إلى سهرة فى مسكنه بكامب شيزار بعد موعد الإغلاق . وشهدت صفية السهرة واشتركت فى مناقشة التفاصيل . وجاء ذكر لليلة رأس السنة فاتفقنا أيضا على الاحتفال بها معا فى الجنفواز على أن نكمل السهرة فى بيت الخواجا أو فى أى مكان آخر ، فهنأت نفسى على الخلاص من سهرة العجائز .

وفى صباح اليوم التالى لاحظت أن حجرة الإفطار تطالعنى بوجه

غريب . أجل كان قلاوون الصحافة معتكفا فى حجرته ما يزال ، ولكن منصور باهى لم يفارق حجرته أيضا ، ولم أر أثرا لزهرة . وقرأت فى وجهى المدام وطلبة بك وجوما ينذر بالشر ، وإذا بالرجل يقول :

— أما علمت بالخبر ؟

رمقته بنظرة متسائلة فقال :

— لقد عثر على سرحان البحيرى جثة هامدة فى طريق البالما ..

لبثت لحظات ذاهلا قبل أن يستقر الخبر فى وعيى وإدراكـــى . واكتسحنى شعور من الانزعاج والإشفاق ، والقلق حيال طبيعة الموت الغامضة المقتحمة . وسألت :

— ميتا ؟

— بل قتيلا .

— ولكن .

فقاطعتنى المدام :

— اقرأ الجريدة ، إنه خبر مزعج ، وقلبى يحدثنى بمتاعب كثيرة .

تذكرت المعركة الأخيرة أمام المصعد فامتعضت نفسي . وخشيت أن تمتد إلى المتاعب التى تنبأت بها المدام . وسألت وأنا أدرك سخف السؤال وعمقه :

— ترى من يكون القاتل ؟

فقالت المدام :

ـــ هذا هو السؤال طبعا .

وقال طلبة مرزوق :

ـــ وعندما يسألون عن أعدائه ..؟!

أجبت وقد استعدت شيئا من روح السخرية :

ـــ فى الحق لم يكن له صديق بيننا !

فقال طلبة مرزوق :

ـــ وهل يكون له أعداء آخرون .

ـــ ستعرف الحقيقة عاجلا أو آجلا .

وسألت عن زهرة فأجابت المدام :

ـــ فى حجرتها على أسوأ حال ..

أفقت من وقع الخبر فرددت قائلا :

ـــ لتكن مشيئة الله . .

كان فى نيتى أن أخبر المدام بما استقر عليه رأيى من الانتقال من البنسيون ولكنى أجلت ذلك إلى وقت آخر . ولما هممت بالخروج قال لى طلبة بك :

ـــ محتمل أن ندعى جميعا لسماع أقوالنا .

فقلت وأنا أمضى :

ـــ فليدعنا من يشاء .

صممت على غسل رأسى بجولة من جولاتى الانطلاقية فى أنحاء

الإسكندرية . كانت السحب البيضاء دانية يقطر منها لون رائق ، والهواء خفيفا سريعا لاذعا .

إنه آخر يوم فى السنة وقد تضاعفت رغبتى فى إحياء ليلة جنونية حتى الصباح .

ولقد وضحت لى معالم الطريق ، فليمت من يموت وليعش من يعيش .

دفعت السيارة وأنا أقول لصورتى فى المرآة الصغيرة :

فريكيكو .. لا تلمنى ..



٣

منصور باهى

قضى علىّ بالسجن فى الإسكندرية وبأن أمضى العمر فى انتحال الأعذار .

قلت ذلك لأخى وأنا أودعه ، ثم ذهبت رأسا إلى بنسيون ميرامار . فتحت شراعة الباب عن وجه عجوز ذى طابع أنيق متعال ، رغم الكبر ورغم المهنة ، فسألتها :

ـــ مدام ماريانا ؟

أجابت بالإيجاب فقلت :

ـــ منصور باهى ..

فتحت لى الباب مرحبة وهى تقول :

ـــ أهلا .. حدثنى أخوك بالتليفون .. اعتبر نفسك فى بيتك .

انتظرت عند الباب حتى وصل البواب حاملا الحقيبتين ، ثم دعتنى إلى الجلوس وجلست هى على كنبة تحت تمثال للعذراء :

ـــ أخوك ضابط بوليس عظيم ، كان ينزل عندى قبل أن يتزوج ، وقد أقام فى الإسكندرية عمرا وها هو ينتقل إلى القاهرة ..

تبادلنا نظرات مودة وهى تتفحصنى بدقة وعناية ثم سألتنى :

ـــ كنت تقيم معه ؟

ـــ نعم .

ـــ طالب ؟.. موظف ؟

ـــ مذيع فى محطة الإسكندرية .

ـــ ولكنك أصلا من القاهرة ؟

ـــ نعم ..

ـــ اعتبر نفسك فى بيتك ولا تحدثنى عن الإيجار ..

ضحكت مستنكرا ، ولكنى شعرت أنها على استعداد لقبولى بالمجان لو أردت . حسن ، العفن يجرى مع الهواء ولعله يصدر أصلا من ذاتى أنا .

ـــ وأى مدة ستقيم معنا ؟

ـــ غير محدودة ..

ـــ سنتفق على أجرة مناسبة ولن أطالب برفعها فى الصيف ..

ـــ شكرا ، لقد أرشدنى أخى إلى ما يجب عمله وسوف أدفع فى

المصيف كالمصيفين ..

انتقلت بلباقة إلى موضوع آخر فتساءلت :

— أعزب ؟

— نعم .

— متى تفكر فى الزواج ؟

— ليس الآن على أى حال .

فضحكت عاليا وهى تسأل :

— فيم تفكر إذن ؟

جاريتها فى الضحك بلا روح . ودق الجرس فقامت ففتحت الباب فدخلت فتاة حاملة لفة كبيرة من البقالة أو غيرها ثم مضت إلى الداخل . من نظرة أدركت أنها خادمة وأنها جميلة . ثم عرفت — والمدام تخاطبها — أن اسمها زهرة . وهى فى سن طالبة جامعية وكان ينبغى أن تكون كذلك .

قادتنى المدام إلى إحدى الحجرتين المطلتين على البحر وهى تقول :

— هذا الجانب غير مناسب للشتاء ولكنها الحجرة الوحيدة الخالية ..

فقلت بلا اكتراث :

— إنى أحب الشتاء ..

* * *

وقفت فى الشرفة وحيدا . ترامى البحر تحتى إلى غير نهاية ، ينبسط

فى زرقة صافية بديعة ، وتلعب أمواجه الهادئة بلآلئ الشمس . غمرتنى ريح خفيفة فى ملاطفة منعشة و لم يكن فى السماء إلا سحابات متفرقة . كاد يغلبنى الحزن ولكن سمعت حركة خفيفة فى الحجرة فالتفت مستطلعا فرأيت زهرة وهى تفرش السرير بالملاءات والأغطية . عملت بهمة دون أن تنظر نحوى فتمليتها على مهل وسرعان ما أكبرت ملاحتها الريفية الباهرة . وقلت راغبا فى إنشاء علاقة ومودة :

— أشكرك يا زهرة .

فابتسمت إلىّ ابتسامة تشرح الصدر ، فطلبت فنجال قهوة فجاءتنى به بعد دقائق معدودة . وقلت :

— انتظرى من فضلك حتى أفرغ ..

وضعت طبق الفنجال على سور الشرفة ومضيت أحتسيه فاقتربت حتى وقفت عند العتبة رانية إلى البحر فسألتها :

— تحبين الطبيعة ؟

لم تجب . ولكنها لم تفهم . ترى ماذا يشغل بالها ؟. ولكن لا ريب أنها بالغريزة المرتوية من الأرض تتحفز للعمل الأول الذى تهتم به الطبيعة الخلابة . قلت :

— لدى فى الحقيبة الكبرى كتب ولا صوان لها فى الحجرة .

استعرضت قطع الأثاث بعينيها ثم قالت ببساطة :

— دعها فى الحقيبة .

ابتسمت ثم سألتها :

ــ تعملين هنا من قديم ؟

ــ كلا .

ــ والمكان أهو مناسب لراحتك ؟

ــ نعم .

ــ ألا يضايقك الرجال الذين يجيئون ويذهبون ؟

هزت منكبيها و لم تجب بلا أو نعم فقلت :

ــ إنهم مخيفون أحيانا ، أليس كذلك ؟

تناولت الفنجال ثم قالت وهي تهم بالذهاب :

ــ أنا لا أخاف !

أعجبت بثقتها بنفسها . وإذا بى أعانى إحساسا بالحسرة . وكعادتى جعلت أفكر فيما هو كائن وما ينبغي أن يكون . وتهددنى الحزن مرة أخرى .

تفقدت قطع الأثاث ثم قر عزمى على شراء مكتبة صغيرة للكتب ، أما الترابيزة المستديرة القائمة بين صوان الملابس والشيزلـونج فصالحة للكتابة .

* * *

لبثت فى دار الإذاعة بضع ساعات لتسجيل البرنامج الأسبوعى . تناولت الغداء فى مطعم بترو بشارع صفية زغلول . جلست فى على

كيفك لأحتسي فنجالا من القهوة . مضيت أتسلى بمشاهدة الميدان المغطى بمظلة من السحب . وقد انتشرت معاطف المطر المطوية على الأذرع . وفجأة دق قلبي عندما مر أمامي ذاك الرجل . فوزى !. انحنيت إلى الأمام قليلا حتى أوشك جبيني أن يمس الزجاج لأتأكد من هويته . كلا ، ليس بفوزى ، ليس بفوزى على وجه اليقين . ولكن ما أعظم التماثل بينهما ودرية حضرت بالتداعي كما يقال . وهي تحضر بلا قانون إلا قانونها الأزلي . أجل درية . ماذا لو كان هو فوزى حقا ؟. وماذا لو تلاقت الأعين ؟. إذا رأيت صديقا حميما وجبت عليك معانقته . وهو أيضا بمنزلة الأستاذ . لتكن معانقة حارة وإن أدمتك الأشواك . وادعه إلى فنجال قهوة فبذلك تقضى آداب الضيافة .

— أهلا .. أهلا .. ماذا جاء بك إلى الإسكندرية فى هذا الوقت من العام ؟

— زيارة عائلية !

هذا يعنى أنه جاء ليمارس نشاطا ولكنه يخفيه عنى كما يجدر به . على أنني قلت :

— أتمنى لك إقامة دائمة .

— لم نرك منذ عامين ، وبالدقة منذ تخرجك .

— بلى ، فقد عينت فى محطة الإسكندرية كما تعلم !

— أعنى أنك هجرتنا تماما .

ـــ بعض المتاعب .. أعنى صادفتنى بعض المتاعب .

ـــ قد يكون من الحكمة ألا يستمر الإنسان فى عمل لا يناسبه .

اجتاحتنى كبرياء عمياء فقلت :

ـــ وقد لا يستمر فى العمل أيضا إذا كف عن الإيمان به .

تمهل كعادته ليزن كلماته ثم قال :

ـــ قيل إن أخاك ..

قاطعته باستياء :

ـــ لست قاصرا ..

فضحك قائلا :

ـــ أغضبتك ؟.. معذرة ..

توترت أعصابى . درية . وتساقط رذاذ فتمنيت أن ينهل المطر ليخلو الميدان من البشر . عزيزتى . لا تصدق . قديما قال حكيم إننا قد نكذب أحيانا لنقنع الآخرين بأننا صادقون . وعددت الحظ صديقى المخيف فسألنى :

ـــ ألم تعد تهتم بشىء ؟

فضحكت . كادت تند عنى ضحكة . وقلت :

ـــ ما دمت أحيا فلا بد أن أهتم بشىء .

ـــ مثل ماذا ؟

ـــ ألا ترى أننى حلقت ذقنى وأننى أحكمت عقد الكرافتة ؟

فسألنى جادا :

ــ وماذا أيضا ؟

ــ هل شاهدت فيلم مترو الجديد ؟

ابتسم ثم قال :

ــ فكرة .. فلنشاهد فيلما رأسماليا !

* * *

زارتنى مدام ماريانا فى حجرتى زيارة مجاملة . ينقصك شىء ؟. أى خدمة ؟، كن صريحا ، كان أخوك صريحا وكان شهما بكل معنى الكلمة ، وهو قوى ضخم عملاق ، أما أنت فدقيق متناسق ولكنك قوى أيضا ، اعتبر البنسيون بيتك . واعتبرنى صديقة ، صديقة بكل معنى الكلمة .

ولكنها لم تأت فى الحقيقة للمجاملة ، أو لم تكن المجاملة إلا وسيلة فحسب ، لقد جاءت أصلا للاعتراف ، أو لتحقيق الذات عن طريق شفوى . هكذا تطوعت برواية تاريخ حياتها ، نشأتها الناعمة المنعمة ، حبها وزواجها الأول من كابتن إنجليزى ، زواجها الثانى من ملك البطارخ وقصر الإبراهيمية ، ثم فترة الانحدار ، ولكن أى انحدار ؟!، كان بنسيون السادة ، الباشوات والبكوات ، أيام الحرب .

ودعتنى إلى البوح بأسرار حياتى ، طوفان من الأسئلة ، امرأة غريبة ومسلية ومرهقة ، امرأة عند الزوال ، لم أشهدها وهى عروس

الصالونات ، ولكن يمكن تخيلها ، على ضوء الفاتنات والطغاة يمكن تخيلها ، ولكنى لم أعرفها إلا وهى خرابة أثرية تتعلق عبثا بأذيال الحياة .

وعلى مائدة الإفطار تعرفت بالنزلاء . أسرة متنافرة غريبة . وإنى لفى حاجة إلى تسلية . إذا تغلبت على ما يشدنى إلى الداخل فقد أنعم بصاحب أو بصديق . لم لا ؟. لنطرح جانبا عامر وجدى وطلبة مرزوق فهما من جيل راحل . ولكن ماذا عن سرحان البحيرى وحسنى علام ؟. فى عينى سرحان جاذبية فطرية وهو ودود فيما يبدو رغم صوته المزعج ولكن ماذا عن اهتماماته ؟. أما الآخر .. حسنى علام .. فهو مثير للأعصاب ، هكذا يبدو لأول وهلة على الأقل ، متغطرس الصمت والتحفظ ، غاظنى بنيانه المحكم ورأسه الكبير المرتفع وتربعه على كرسيه كأنه حاكم ، أجل حاكم ولكن بلا ولاية وبلا محتوى ، ولعله لا يتبسط فى الحديث مع أحد إلا إذا وثق من أنه أتفه منه . وقلت لنفسى . على الذى يرضى بهجر الدير أن يوطن النفس على معاشرة الأراذل . وكالعادة تملكنى الانطواء حيال الغرباء . وقلت سيقولون .. سيظنون . وقديما خسرت بذلك الفرض حياتى .

* * *

دهشت عندما رأيت سرحان البحيرى داخلا علىّ فى حجرة مكتبى بالإذاعة . تألق وجهه ببشاشة صديق قديم ، ثم صافحنى بحرارة وهو يقول :

— كنت مارا تحت الإذاعة فقلت أسلم وأشرب القهوة !

رحبت به ، وطلبت القهوة ، فقال :

— سأطالبك يوما بإطلاعى على أسرار الإذاعة !

بكل سرور يا رجل المصطبة العتيدة التى لم أنعم بالجلوس عليها

وبإيجاز حدثنى عن عمله بشركة الإسكندرية وعضوية مجلس الإدا

وعضوية الوحدة الأساسية . وقلت له :

— يا له من حماس جميل يعد درسا للمتواكلين .

فنظر إلى بإمعان ، ثم قال :

— إنه طريقنا للمشاركة فى بناء عالمنا الجديد .

— آمنت بالاشتراكية من قبل الثورة ؟

— الحق أنى آمنت بها مع الثورة .

ودغدغنى ميل إلى مناقشة إيمانه ولكننى كبحته . وجرى الحديث

إلى البنسيون فقال :

— إنه أسرة طريفة لا يشبع الإنسان منها .

فسألته بعد تردد :

— وحسنى علام ؟

— شاب ظريف هو الآخر .

— يبدو كأنه أبو الهول .

— فى الظاهر فقط ، ولكنه ظريف ، وذو استعداد أصيل للعربدة !

ضحكنا معا . لم يدر أنه يعرفنى بنفسه أكثر مما يعرفنى بالآخر .

وعاد يقول محذرا :

ــ إنه من الأعيان ، بلا وظيفة ، فيمكن القول إنه بلا شهادة ، خذ بالك من هذه النقطة ..

ثم واصل بلهجته الحكيمة المحذرة :

ــ إنه يملك مائة فدان ، فهو يخندق فى الخطوط الأمامية ، ولا يحمل شهادة علمية ، وعليك أن تفهم البقية ..

ــ ولماذا أقام فى الإسكندرية ؟

ــ إنه ولد حكيم ، يبحث عن مشروع تجارى ناجح !

فقلت ضاحكا :

ــ عليه أن يغير سحنته المتعجرفة وإلا هرب الزبائن .

ثم خطر لى أن أسأله عما يدعوه إلى الإقامة فى بنسيون رغم أنه قديم عهد بالإسكندرية ، فتفكر قليلا ثم قال :

ــ فضلت بنسيونا عامرا بالناس عن شقة موحشة داخل البلد !

* * *

ليلة أم كلثوم ، ليلة الخمر والطرب ، فيها تزحزح النقاب عن أشياء من خبايا النفوس .

إلى سرحان البحيرى يعود أكبر الفضل فى إحيائها ولعله تكلف أقل نصيب من نفقاتها !. استرقت نظرات إلى طلبة مرزوق لم يقرأ معانيها

أحد . أجل ، عاودتنى ذكريات حميمة ، أحلام دموية ، صراعات طبقية ، كتب وتجمعات ، بنيان من الأفكار راسخ الأساس . راعنى ترهله وانكساره . وحركات شدقيه ، وقبوعه فوق مقعده فى استسلام ، وتودده إلى الثورة بلا إيمان ، وكأنه لم يكن من السلالة التى شيدت قلاعها من اللحم والدماء . أخيرا جاء دوره ليمارس النفاق بعد أن خلف بجده المتهوم الذابل أمة من المنافقين . وما حسنى إلا جناح من النسر المهيض ، لكنه جناح ما زال يرفرف ولا يخلو من قدرة على الطيران .

* * *

ـــ أقول إن تلك التناقضات قد محيت تماما .

ـــ كلا .. إنها أزيحت بتناقضات جديدة ، وسوف تثبت لك الأيام ..

* * *

أما سرحان البحيرى فسرى فينا كالروح بمرح حار لا يفتر وهو طيب القلب ، ومخلص ، لم لا ، طموح بلا ريب ، إنه التفسير المادى للثورة ، وسرعان ما تبين لى أن عامر وجدى هو أعظم الحاضرين فتنة وأحقهم بالتقدير والحب . عرفت أنه عامر وجدى الذى راجعت العديد من مقالاته عند إعدادى لبرنامج « أجيال من الثورة ». لقد استولت على أفكاره المتطورة بل والمتناقضة ، وسحرنى أسلوبه الذى بدأ

بالسجع وانتهى إلى بساطة نسبية لا تخلو من فخامة وجزالة . وقد سر باطلاعى على مقالاته سرورا دل على عمق إحساسه بالزوال والنسيان والجحود فأثر ذلك فى نفسى تأثيرا حادا محزنا . وقبض على القشة التى ألقيتها إليه فى الماء فمضى يقص علىّ تاريخه الطويل ، جهاده المستمر ، التيارات التى لاطمته ، والأبطال الذين آمن بهم .

* * *

ــــ وسعد زغلول ؟.. لقد عبده الجيل السابق عبادة ..

ــــ ما قيمة المعبودات القديمة !، لقد طعن الرجل الثورة الحقيقية وهى فى مهدها ..

* * *

ولكن ما بال طلبة مرزوق يرمقنى بحذر ؟. لقد ضبطت عينيه المرتابتين الكارهتين فى مرآة المشجب . لا يهم . ومثله خليق بأن يخاف خياله . وقد صببت له كأسا فشكرنى فسألته عن رأيه فى نظرات عامر وجدى التاريخية ولكنه قال كالمعتذر :

ــــ ما مضى قد مضى ، دعنا نتهيأ للسماع .

أعجبت بزهرة وهى تقوم على خدمتنا ولكنها لا تكاد تبتسم إلا للنادر من نكاتنا ، وتجلس عند البرافان لتراقبنا من بعيد بعينين جميلتين غير مبينتين . وقد سألها حسنى علام وهى تقدم له شيئا :

ــــ وأنت يا زهرة .. هل تحبين الثورة ؟

فتراجعت فى حياء عن دائرة المعربدين ولكن المدام أجابت عنها إجابة شافية . وقد بدا أنه يحييها بسؤاله ويدعوها إلى المشاركة فى الحديث ولكنى لمحت فى أعماقه ضيقا يداريه فقلت :

— إنها تحبها بالفطرة !

ولكنه لم يسمعنى أو أنه — الوغد — تجاهلنى . وقد اختفى قبل نهاية السهرة ، وأخبرت زهرة بأنه غادر البنسيون ، وقد أعجبت بعامر وجدى الذى ظل ساهرا يسمع ويطرب حتى مطلع الفجر . وسألته وقد نهضنا للنوم :

— هل سمعت فى ماضيك صوتا كهذا الصوت ؟

فأجاب باسما :

— إنه الشىء الوحيد الذى لا نظير له فى الماضى ..

* * *

رجوتها أن تجلس ولكنها لبثت واقفة مستندة إلى صوان الملابس، تنظر معى إلى الأفق الملبد بالغيوم من زجاج الشرفة المغلق، وتنتظر أن أفرغ من احتساء الشاى. وكنت أعطيها قطعة من البسكوت الذى أحتفظ بقدر منه فتقبلها عربونا لصداقة نامية. إن قلبها الأبيض يشعر بمودتى واحترامى وإعجابى وكنت بذلك سعيدا. وتساقط رذاذ، فانسابت قطراته على الزجاج فاهتزت صورة العالم الخارجى. سألتها عن بلدتها فأجابت. خمنت السبب الذى اقتلعها من أرضها ، ولكنى قلت:

— لو بقيت فى قريتك لسارع إليك ابن الحلال .

فقصت علىّ قصة ضارية ، عن الجد والزواج العجوز .. ثم قالت :

— وهربت ..

انزعجت للخبر فقلت :

— ولكنك لن تسلمى من الألسنة .

فقالت باستهانة :

— إنه خير مما هربت منه !

أعجبت بها لحد الإكبار ولكن أشجتنى وحدتها ، غير أنها كانت تقف مليئة بالثقة كمعدن غير قابل للكسر . وكان الرذاذ قد نقش الزجاج بالغبش فاختفى العالم أو كاد .

* * *

قنبلة ؟. صاروخ ؟، فكرة جنونية . كلا ، إنها سيارة ، الأحمق ، يا للشيطان إنه حسنى علام ، ماذا يدفعه إلى الطيران ؟، سر لا يعلمه إلا هو ، كلا .. فإلى جانبه تجلس فتاة ، كأنها صونيا ، أهى صونيا ، صونيا أو غيرها فليذهب إلى الجحيم .

وما كدت أجلس فى مكتبى حتى لحق بى زميلى وهو يقول :

— قبض على أصحابك أمس !

غشيتنى لحظة غيبوبة . خجلت من أن أعلق بكلمة واحدة فقال :

— والسبب فيما يقال ..

قاطعته بحدة :

— لا أهمية لذلك .

— ثمة همس عن ..

— قلت لا أهمية لذلك ..

اعتمد على مكتبى بذراعيه الممدودتين وقال :

— كان أخوك حكيما .

فقلت وأنا أنفخ :

— نعم الحكيم أخى ..

وقلت لنفسى لا شك أن حسنى علام قد بلغ الآن أقصى الأرض ، وأن صونيا ترتعد من الخوف واللذة .

* * *

— ولا كلمة ، سأقتلعك من الوكر !

— ولكنى لم أعد طفلا ..

— ألم تسرع بأمك إلى القبر ؟

— اتفقنا على ألا نذكر ذلك الماضى البعيد .

— ولكنى أراه حاضرا ، ستذهب معى إلى الإسكندرية ولو اضطررت إلى أخذك بالقوة .

— عاملنى كرجل من فضلك .

— إنك ساذج ، أتظننا غافلين ، لسنا غافلين .

وتفرس فى وجهى بقوة ثم قال :

ـــ إنك غير جاهل ، ماذا تحسبهم ؟، أبطالا .. هه ؟، إنى أعرفهم خيرا منك ، وستذهب معى طوعا أو كرها ..

* * *

فتحت لى الباب . كنت خافق القلب جاف الحلق مشتت الفكر برز لى وجهها من الدهليز القاتم أبيض شاحبا . حدقت فىّ بعينين جامدتين ، لم تعرفنى أول الأمر ، ثم اتسعت عيناها لوقع مفاجأة غير متوقعة ، وهمست :

ـــ أستاذ منصور !

تنحت جانبا فدخلت وأنا أقول :

ـــ كيف حالك يا درية ؟

تقدمتنى إلى حجرة الجلوس ، وقد أضفى منظرها الحزين على كل شىء كآبة وتجهما . جلسنا على مقعدين متقاربين ، وعلى الحائط أمامنا صورته تطل علينا من إطار أسود وهو يسدد إلينا الفوتوغرافيا كأنما يلتقط لنا صورة ، تبادلنا نظرات صامته حزينة ، ثم سألت :

ـــ متى جئت إلى القاهرة ؟

ـــ جئت من المحطة رأسا .

ـــ إذن علمت ..؟

ـــ أجل ، فى مكتبى ، ثم أخذت ديزل الساعة الثانية مساء .

ونظرت إلى صورته وأنا أتشمم رائحة التبغ الذى يدخنه وهى مستكنة ما تزال فى جو الحجرة ، ثم سألت :

ـــ هل قبض عليهم جميعا ؟

ـــ أظن ذلك .

ـــ وأين ذهبوا بهم ؟

ـــ لا أدرى .

تشعث شعرها فى إهمال ، وشحبت بشرتها البيضاء ، وضغضغت عينيها نظرة ذابلة مسهدة .

ـــ وأنت ؟

ـــ كما ترى .

وحيدة بلا مورد . كان أستاذا مساعدا بكلية الاقتصاد ولكن بلا مدخرات . كل شيء واضح وضوح الكآبة التى تخنق المكان كله .

ـــ درية ، أنت زميلة قديمة ، وهو صديق ، أعز صديق رغم كل شيء .

ثم استجمعت شجاعتى وواصلت :

ـــ أنا موظف ، ولى إيراد لا بأس به أيضا ، ولست مسئولا عن أحد كما تعلمين .

حركت رأسها فى ضيق . تمتمت :

ـــ ولكنك تعلم أننى لا ..



حركت رأسها فى ضيق وتمتمت : ولكنك تعلم أننى لا ..

(ميرامار)

قاطعتها بحرارة :

ـــ لا أظنك ترفضين مساعدة تافهة من صديق قديم .

ـــ الطبيعى أن أجد عملا مناسبا .

ـــ عندما يتيسر ذلك ، ولن يتيسر قبل مضى وقت .

ما زالت الحجرة مطبوعة بروحه . كعهدى بها فى الأيام الخالية الكئيبة الاستديو ومكتبتها العامرة ، المسجل ، الجرامفون ، التليفزيون والراديو ، الفوتوغرافيا والأفلام وألبوم الصور ، ولكن أين الصورة التى جمعت بيننا فى أوبرج الفيوم ؟. لا شك أنه رمى بها فى لحضور الغضب . وكانت عينانا تلتقيان ثم تنفصلان فى حذر ، ولا شك أن مشاعر متجانسة طاردتنا ، وأن ذكريات مشتركة ناوشتنا ، وأن الماضى والحاضر والمستقبل يتمثل فى صورة طريق مجهول . وسألتها :

ـــ لديك خطة ؟

ـــ لم أجمع أفكارى بعد .

ترددت قليلا ثم سألت :

ـــ ألم تفكرى فى الكتابة إلى ؟

ترددت قليلا ثم أجابت :

ـــ كلا .

ـــ ولكن احتمال حضورى لا شك خطر ببالك .

لم تجب . قامت فغابت دقائق ثم رجعت بالشاى ، وأشعلنا

سيجارتين . خيل إلى أنى أسترجع رائحة قديمة مفتقدة . وكان لا بد مما ليس منه بد فقلت وعذاباتى القديمة تجتاحنى :

ـــ أظنك علمت بمحاولاتى الفاشلة فى العودة ؟

لازمت الصمت فقلت :

ـــ لم ألق أى تشجيع ، وهذا أخف تعبير يمكن اختياره .

تمتمت برجاء :

ـــ لننس الماضى .

ـــ حتى فوزى نفسه تجاهلنى !

ـــ قلت لننس الماضى .

ـــ كلا يا درية .

ثم قلت بامتعاض وألم :

ـــ ولست أجهل ما قيل عنى ، قالوا إننى أسعى للعودة لأعمل عينا لأخى !

هتفت بتبرم وضيق :

ـــ ألا يكفينى ما بى من حزن !

اعتذرت إليها بنظرة ذليلة وقلت :

ـــ درية إنك تدركين شعورى تماما .

ـــ إنى ممتنة .

فهتفت كالملدوغ :

ـــ أعنى شعورى بأننى كان يجب أن أكون معهم !

فقالت بحزن :

ـــ لا جدوى من تعذيب نفسك .

ـــ أود .. أود أن أعرف رأيك فى بصراحة ؟

ساد الصمت فترة قصيرة مشحونة بالعذاب ثم تمتمت :

ـــ لقد استقبلتك فى بيتى ، أو إن شئت فى بيته ، وفى هذا الكفاية

تنهدت بصوت مسموع . لم يطمئن قلبى تماما . وكنت على ثقة من أنى سأرد إلى الجحيم كما كنت ، ولكن لم يكن الوقت مناسبا لتبرير الأخطاء . وقلت :

ـــ سأزورك بين حين وآخر ، وعليك أن تكتبى لى لدى أى طارئ

* * *

أرهقنى السفر ذهابا وإيابا فقررت البقاء فى البنسيون . انضممت إلى الجالسين حول الراديو فى المدخل ، ومن حسن الحظ أنهم كانوا أحب أهل الدار إلى نفسى : عامر وجدى والمدام وزهرة . شغلتنى أفكارى عن الحديث حولى حتى سمعت المدام وهى تقول لى :

ـــ إنك دائما غائب عنا بأفكارك !

فقال عامر وجدى وهو يرمقنى بمودة :

ـــ ذاك شأن الأذكياء !

وظل يرمقنى بعينيه الغائمتين ثم تساءل :

— ألا تفكر فى استخلاص مادة كتاب من براجك الثقافية ؟

فقلت دون مبالاة بالحقيقة :

— إنى أفكر فى كتابه برنامج عن تاريخ الخيانة فى مصر !

— الخيانة !.. يا له من موضوع غزير متشعب !

وضحك طويلا ثم عاد يقول :

— عليك أن ترجع إلى ، سأمدك بالمراجع والذكريات

* * *

— أنا أحبك ، وأنت تحبيننى ، دعينى أكلمه .

— إنك مجنون !

— إنه عاقل ومعقول وسيفهمنا تماما ، وسيغفر لنا .

— لكنه يحبنى ، ويعدك صديقه الأوحد ، ألا تفهم ؟

— إنه يكره الزيف ، إنى أفهمه تماما .

* * *

واستمر عامر وجدى قائلا :

— برنامج عن الخيانة ، يا له من برنامج ، ولكن احرص فى النهاية على أن تؤلف كتابا وإلا نسيك الناس كما نسونى ، لم يبق من الذين لم يدونوا أفكارهم إلا سقراط .

وكانت المدام تتابع أغنية يونانية طلبتها فيما يطلبه المستمعون ، أغنية

على لسان عذراء تعدد المزايا التى تتمناها فى فتى الأحلام أو هكذا قالت المدام . إن منظرها وهى تستمع إلى الأغنية مغمضة العينين من الطرب منظر مؤثر حقا ، خلاصة مبكية مضحكة لحب الحياة .

وقال عامر وجدى :

ـــ وقد خلد بفضل تلميذه أفلاطون . ولكن غريب أن رضى بتجرع السم متجاهلا فرص الهرب !

فقلت بمرارة :

ـــ أجل ، ورغم أنه لم يكن يعانى شعورا بالإثم أو الخطأ .

ـــ وكم من أناس إذا قارنتهم بسقراط اقتنعت بأنهم لا يمكن أن يرجعوا معه إلى أصل جنسى واحد !

فقلت بمرارة وجنون :

ـــ أولئك هم الخونة .

ثمة حقائق وثمة أساطير ، الحياة يا بنى محيرة حقا .

ـــ ولكنك من جيل الإيمان ؟

فضحك وهو يقول :

ـــ الإيمان .. الشك .. إنهما مثل النهار والليل .

ـــ ماذا تعنى من فضلك ؟

فسكت لحظات ثم قال :

ـــ أعنى أنهما لا ينفصلان . وأنت يا بنى من أى جيل ؟

فقلت بضجر :

ــ العبرة بما نعمل لا بما نفكر ، وإذن فأنا مجرد مشروع .

وضحكت المدام قائلة :

ــ نعمل .. نفكر .. ما هذا ؟!

وضحك العجوز أيضا وقال :

ــ فى كثير من الأحيان يخيل إلى المفكر المرهق أن أثمن ما فى الوجود يتلخص فى أكلة شهية وامرأة جميلة .

فهقهت المدام وقالت :

ــ برافو .. برافو .

وضحكت زهرة أيضا فسمعت ضحكتها لأول مرة فانجابت عنى الهموم إلى حين . وأعقب ذلك دقائق صمت فتجلى صوت الهواء وهو يدوى فى الخارج ويلطم الجدران فتصطك النوافذ المغلقة . وعاودنى القلق والكآبة فقلت مخاطبا عامر وجدى :

ــ أن تؤمن وأن تعمل فهذا هو المثل الأعلى ، ألا تؤمن فذاك طريق آخر اسمه الضياع ، أن تؤمن وتعجز عن العمل فهذا هو الجحيم .

ــ أجل،إنك لم تشهد سعد فى شيخوخته وهو يتحدى النفى والموت.

نظرت إلى زهرة ، المنفية الوحيدة ، وهى تجلس مفعمة ثقة وأملا فغبطتها ، بل حسدتها !.

* * *

زرت درية بعد مضى أسبوع من الزيارة الأولى . استعاد مسكنها أناقته المعهودة ، وتبدت هى فى مظهر لا تعوزه العناية ، ولكنى قرأت فى عينيها السقم . أجل ، وحيدة وبلا عمل أو أمل ، قلت لها :

ــ أرجو ألا تضايقك زياراتى .

فقالت بصوت لم أتبين فيه معنى :

ــ على الأقل فهى تشعرنى بأننى ما زلت على قيد الحياة .

تقبض قلبى ألما . تخيلت الحال على حقيقتها الخشنة الجرداء . وددت أن أعرب عن عواطفى ولكن الماضى عقل لسانى . واتفق رأينا على أن فى العمل النجاة من السقم ولكن كيف ؟. إنها تحمل ليسانس آداب فى اللغات القديمة ولكن ثمة عقبات لا يستهان بها .

ــ لا تحبسى نفسك فى البيت .

ــ فكرت فى ذلك ولكنى لم أتحرك بعد .

ــ لو كان فى الإمكان أن أزورك كل يوم .

ابتسمت . تفكرت . ثم قالت :

ــ يحسن أن نتقابل خارج البيت !

لم أرتح لقولها ولكنى اقتنعت به فقلت :

ــ فكرة مقبولة !.

وتم اللقاء الثالث فى حديقة الحيوان . طالعنى وجه الزمان الأول عدا نظرة العين . بجماله ورونقه وإن خلا من روح المرح والبهجة . وسرنا

دقائق إلى جانب السور المطل على طريق الجامعة ، طريق ذكريات مشتركة لا يمكن أن تنسى . وقالت :

— إنك تكلف نفسك ما لا يطاق .

— أنت لا تدرين كم أنى سعيد بذلك .

أكان أجدر بى أن أصرح بالسعادة المزعومة ؟. وعدت أقول :

— الوحدة يا درية ، إنها شر ما يبتلى به إنسان .

قلت ذلك بنبرة المجرب ، وربما عن قصد ، فقالت :

— لم أزر الحديقة منذ أيام الجامعة !

فقلت دون مبالاة بجملتها الاعتراضية :

— إنى وحيد أيضا ، وأعرف مذاق الوحدة .

بدت كالمحاصرة . ضايقنى ذلك وزاد عواطفى تعقيدا والتواء . ورغم ذلك أوشك الفيضان أن يجرف السد . وعندما التقت عينانا خيل إلى أنها جفلت . وإذا بها تقول :

— يحزننى أننى أتربص على حين أنه .. هناك .

ولحظت وجومى فتساءلت :

— مالك ؟.

— لا أكاد أتحرر من الإحساس بالذنب .

— أخشى أن تجد فى صحبتى مصدرا للعذاب .

— كلا . ولكن ذلك الإحساس الجهنمى يتغذى على اليأس .

— علينا أن نجد فى اللقاء شيئا من العزاء .

— واليأس يدفع للتهور ، ولأن يداوى المريض الداء بالداء !.

— ماذا تعنى ؟.

— أعنى .

ترددت قليلا ثم واصلت :

— أعنى .. أن تعذرى حماقتى لو قلت لك يوما تحت دفعة تيار جارف إنى أحبك ، كما أحببتك فى زماننا الأول .

وأفقت من تهورى . أى حماقة ، أى جنون ، ما أبغى ؟. كنت مندفعا وراء غاية محددة . كمن يلقى بنفسه فى الماء ليطفئ ملابسه المشتعلة . وقالت بعتاب :

— منصور !.

فتراجعت كمن تلقى لطمة شديدة ، وقلت بخذلان :

— لا أدرى ماذا قلت ، ولا كيف قلته . ولكن ثقى من أننى لا يمكن أن أسعى للسعادة !.

وقلت لنفسى وأنا أستقل الديزل « فى الرسائل يجد الإنسان شجاعة أكثر » .

* * *

استيقظت على ضوضاء وصخب .. أهو صوت يند عن الصراع الذى يتلاطم فى باطنى ؟. كلا .. هناك صراع من نوع آخر فى

البنسيون . غادرت حجرتى فرأيت المنظر الأخير من معركة . أدركت من آثارها المطبوعة على الوجوه أن سرحان وامرأة غريبة وزهرة كانوا أبطالها أو ضحاياها . ولكن من المرأة ؟.. وما علاقة زهرة بالأمر كله ؟.

وجاءتنى زهرة بالشاى كالعادة ، فراحت تقص على الواقعة كما وقعت ، باندفاع امرأة وراء سرحان وهو عائد إلى البنسيون ، واشتباكها معه فى عراك . وكيف جرت إلى العراك وهى تخلص بينهما .

— ولكن من المرأة يا زهرة ؟.

— لا أعرف .

— سمعت من المدام أنها كانت خطيبة لسرحان ؟

ترددت مليا ثم قالت :

— ربما .

— ولم انقضت عليك أنت ؟.

— قلت إنى أردت التخليص بينهما .

— ولكن ذلك لا يبرر اشتباكها معك ؟

— حصل .

نظرت إليها برقة ومودة ثم سألتها :

— هل بينك وبين ..

لكنها تجاهلت سؤالى فقلت :

— لا عيب فى ذلك ، وأنا صديق ، وباسم الصداقة أسألك .

فأحنت رأسها بالإيجاب .

— إذن فأنت مخطوبة وتخفين عنى ؟

حركت رأسها نفيا فقلت :

— لم تعلن الخطوبة بعد ؟.

وأقلقني سكوتها فسألت :

— متى تعلن ؟

أجابت بثقة :

— كل شيء بأوانه .

هجس هاجس الخوف فى صدرى فقلت :

— لكنه هجر الأخرى كما رأيت ؟

فقالت ببراءة :

— إنه لا يحبها .

— فلم خطبها إذن ؟

نظرت إلى بإشفاق ثم تشجعت قائلة :

— لم تكن فى الحقيقة خطيبته ، إنها امرأة ساقطة !

— الخيانة هى الخيانة على أى حال !

وقع القول من مسمعى موقعا غريبا فاجعا فوجدت له فى فمى طعم السم وعواقبه . وحنقت على سرحان ضمن حنقى على نفسى فلعنته ألف لعنة .

وعندما جاءتنى فى نفس الموعد بعد ذلك بأيام قالت لى بروح مرحة عالية :

ــ أستاذ .. هل أبوح لك بسر ؟

نظرت إليها مستطلعا ، ومتوقعا المزيد عن علاقتها بسرحان ولكنها قالت لى :

ــ سأتعلم !.

لم أفهم فى الواقع شيئا وظللت أنظر إليها مستطلعا . فقالت :

ــ اتفقت مع جارتنا ست علية محمد المدرسة على تعليمى .

ذهلت .. وهتفت :

ــ حقا ؟.

ــ نعم .. اتفقنا على كل شىء ..

قالت بفخار :

ــ فكرت فيه بنفسى ..

ــ نعم .. ولكن ماذا جعلك تفكرين فيه ؟

ــ قلت لن أبقى جاهلة إلى الأبد ، ثم إن لى غرضا آخر !

غرض آخر ؟

ــ نعم .. سأتعلم مهنة !

رمقتها بإكبار وسعادة وهتفت :

ــ رائع .. رائع .. رائع يا زهرة ..

لبثت منفعلا بالسعادة والإكبار وأنا منفرد بنفسى فى الحجرة المغلقة. كان المطر يهطل، وهدير الأمواج يتتابع فى دفعات مدوية متقطعة راطنا بلغته المجهولة. ثم مضى الانفعال يهدأ وينخفض ويبرد حتى انداح فى مستنقع من ماء آسن يغشاه زبد الكآبة. إن الصعود يذكر بالهبوط، والقوة بالضعف، والبراءة بالعفن، والأمل باليأس. وللمرة الثانية لم أجد من أصب عليه جام غضبى إلا شخصية سرحان البحيرى!

* * *

اخترنا مجلسنا تحت شجرة كافور بكازينو الشاطئ . وكانت الشمس المائلة عن السمت تريق علينا شعاعها الدافىء فتذيب برد القاهرة القارص . وقالت وهى تتفادى طيلة الوقت من تلاقى عينينا :

— ما كان يجب أن أجىء !

فقلت بطمأنينة :

— ولكنك جئت فحسم مجيئك التردد !

— لم يحسم شيئا ، ثق من ذلك !

نظرت إليها وبى تصميم على القفز إلى الهاوية :

— إنى مقتنع بأن مجيئك ..

— كلا ، المسألة أنى لم أرض أن أبقى وحيدة مع رسائلك .

— لا أظن أن رسائلى تتضمن جديدا .

— ولكنك أرسلتها لشخص لا وجود له !

فلمست يدها المطروحة على المائدة كأنما لأثبت لها الوجود ولكنها سحبتها وهي تقول :

ـــ لقد أرسلتها بعد زمانها بأربع سنوات !

ـــ إنها تتضمن أشياء تجاوز بطبعها الزمان والمكان !

ـــ ألا ترى أنني ضعيفة وتعيسة !

ـــ وأنا كذلك ، إنى فى رأى أصحابنا جاسوس . وفى رأى نفسى خائن . ولا ملجأ لى إلا أنت ..

ـــ أى دواء !

ـــ لا يبقى غيره إلا الموت أو الجنون

نفخت فى توتر معذب ثم تمتمت :

ـــ إنى خائنة من قديم الزمان .

ـــ بل كنت مثال الإخلاص الزائف ..

ـــ تعريف آخر للخيانة التى مزقتنى ..

فقلت بغضب :

ـــ إننا نتمزق بلا سبب حقيقى ، وذاك جوهر المأساة ..

ونظرنا إلى النيل بلونه الرصاصى وأمواجه شبه الساكنة . ثم تسللت يدى من وراء المائدة إلى يدها فاحتوتها بحنان ، وشدت قليلا لتسكت مقاومتها الضعيفة . وهمست :

ـــ لا يجوز أن نذعن لرواسب غير صحية !

فقالت بحزن :

ـــ إننا نتدهور معا بأكثر مما تصورت .

ـــ لكننا سنخرج من التجربة كالمعدن النقى ..

ووجدت رغبة طاغية تدفعنى إلى الحضيض كأنما الحضيض غاية منشودة تطلب لذاتها ، أو كأنما الجحيم أمسى هدف الإنسان النهم إلى السعادة .

* * *

التقيت فى محطة مصر بصديق قديم . صحفى وذى ميول تقدمية ولكنه لم يشتغل بالسياسة . جلسنا فى البوفيه ، أنا فى انتظار الديزل وهو فى انتظار شخص قادم من القنال . قال :

ـــ على أن أشكر هذه الفرصة الطيبة فقد كنت أود أن أقابلك ..

حسن، ماذا يريد، إننى لم أره منذ تعيينى فى الإسكندرية. وإذا به يسألنى:

ـــ ماذا يجىء بك إلى القاهرة ؟

حدجته بدهشة. أجل.. وكان يدرك أن سؤاله سيثير دهشتى.. فقال:

ـــ لتشفع صداقتنا لصراحتى ، يقولون إنك تجىء من أجل مدام فوزى !

لم أنزعج الانزعاج الذى توقعه . فقد ساورتنا ـــ أنا ودرية ـــ

الشكوك من قبل ، فقلت بفتور :

— إنها فى حاجة إلى صديق كما تعلم .

— وأعلم أيضا ..

فقاطعته باستهانة :

— وتعلم أننى أحبها من قديم !

فتساءل بإشفاق :

— وفوزى ؟!

— إنه أعظم مما يظن الآخرون .

فقال بضيق :

— إنى — كصديق — غير سعيد بما يقال !

— حدثنى عما يقال ؟

ولكنه سكت .. فقلت بعصبية :

— إننى جاسوس ، إننى هربت فى الوقت المناسب ، ثم تسللت إلى بيت الصديق القديم !

— لم أقصد إلا ..

— وأنت تصدق ذلك !

— لا .. لا .. ولن أسامحك إذا توهمت ذلك ..

* * *

تساءلت فى طريق عودتى إلى الإسكندرية : هل أستحق نعمة

الحياة ؟. إنى أبحث عن حل لمتناقضات شتى ، حل عسير فيما يبدو . فلم لا يكون الموت هو الحل الأخير ؟. وأردت أن أجلس بعض الوقت فى التريانون ولكننى لمحت من الخارج سرحان البحيرى وحسنى علام جالسين يتحادثان فعافتهما نفسى وعدلت عن الدخول . كانت سحب متقاربة الألوان تركض بسرعة ملحوظة وهى دانية ، والهواء يهب فى دفعات منعشة . سرت والكورنيش متحديا وقد ارتفع الماء وتطاير رشاشه إلى الطريق . وقلت لو أننى كنت أملك أشياء ثمينة لحطمتها . وقلت إن التوازن لن يرجع إلى الأشياء إلا بزلزال شامل .

وجاءتنى زهرة بالشاى . قالت لى باعتداد الواثق من اهتمامى بشئونها :

ـــ جاء أهلى ليأخذونى ولكننى رفضت ..

ورغم فتور مشاعرى عامة فإن اهتمامى بزهرة لم يمت ، فقلت لها :

ـــ أحسنت !

ـــ حتى الرجل الطيب ، عامر بك ، نصحنى بالرجوع إلى القرية ..

ـــ إنه يخاف عليك ، هذا كل ما هنالك .

فرمقتنى بإمعان ثم قالت :

ـــ ولكنك لا تبتسم كعادتك !

ابتسمت إليها بلا روح فقالت :

ـــ أنا فاهمة !

ـــ فاهمة ؟

ـــ نعم ، سفرك كل أسبوع وانشغال بالك ؟

ضحكت على رغمى فقالت بسعادة :

ـــ أتمنى أن أشهد فرحك !

ـــ ربنا يسمع منك يا زهرة ..

وتم التفاهم على ضوء نظرة متبادلة . وأشارت بيدها كأنما تدعونى إلى المرح فقلت :

ـــ هناك شخص ينغص علىّ صفوى ..

ـــ من هو ؟

ـــ شخص خان دينه !

فحركت يدها مستنكرة .

ـــ وخان صديقه وأستاذه !

واصلت حركتها الاستنكارية فسألتها :

ـــ هل يغفر له الذنب أنه يحب ؟

فقالت مستفظعة :

ـــ حب الخائن نجس مثله !

* * *

انغمست فى العمل . وكلما اضطربت أعصابى أو تشتت فكرى

سافرت إلى القاهرة . هنالك سعادة الحب . ولكن أى سعادة ؟. لقد سعدت حقا عندما كفت عن المقاومة فتركت يدها فى يدى . ولكنى عانيت بعد ذلك شعورا محموما قلقا ، وسيطرت على فكرة غريبة وهى أن الحب طريق الموت ، وأننى بالإفراط فى كل شيء قد أبلغ نهاية الطريق . وقلت لها مرة :

ــ أحببتك من قديم ، إنك تذكرين ذلك ، ثم فوجئت بخطوبتك !

فقالت بحزن :

ــ إنك تبدو مترددا فيسهل إساءة فهمك :

ثم قالت بنبرات اعتراف :

ــ قبلت فوزى تأثرا بشخصيته . إنه كما تعلم يستحق كل إكبار ..

وكان يجلس حولنا كثيرون من العشاق فسألتها :

ــ وهل نحن سعداء ؟

فحدجتنى باستغراب وقالت :

ــ يا له من سؤال يا منصور !

ــ أعنى ربما ساءك أننى جعلت منك حديث المجالس !

ــ لا يهمنى ذلك أما فوزى ..

أرادت بلا شك أن تردد ما قلته مرات عن سعة إدراكه وكبر قلبه ولكنها سكتت . وكرهت إدارة الأسطوانة من جديد . وإذا بى أسألها :

ـــ درية هل داخلك الشك فىّ كالآخرين ؟

قطبت فى استياء لأنها حذرتنى أكثر من مرة من طرق ذلك الموضوع ولكنى قلت برغبة ملحة :

ـــ لو فعلت لكان أمرا طبيعيا !

تحولت إلى محتجة وسألت :

ـــ لم تنبش عن العذاب ؟

تراجعت باسما وأنا أقول :

ـــ طالما أسأل نفسى عما دعاك للخروج عن الإجماع ؟

فقالت بضجر :

ـــ الحق أنه ليس لك طبيعة الخونة !

ـــ وما طبيعة الخونة ؟، إنى ضعيف ، إذعانى لأخى ضعف لا شك فيه ، وإنى أرشح الضعفاء للخيانة ..

تناولت يدى بين يديها وقالت برجاء !

ـــ لا تعذب نفسك .. لا تعذبنا ..

وقلت لنفسى إنها لا تدرى أنها أداة من أدوات التعذيب !.

* * *

دخلت المدام حجرتى فأيقنت من أننى سأسمع أنباء . إنها تطير بالأخبار ـــ كفراشة ـــ من ناحية إلى أخرى . حسن . أما سمعت يا مسيو منصور ؟!. محمود أبو العباس بياع الجرائد خطب زهرة ،

ولكنها رفضته !

ـــ هو الجنون نفسه يا مسيو منصور !

فقلت ببساطة :

ـــ إنها لا تحبه يا مدام ..

ـــ قلبها سائر فى طريق خاطئ !

وغمزت بعينها. وقلت لنفسى الويل له إذا غدر بها. وتملكتنى بغتة فكرة غريبة، أو رغبة منحرفة، وهى أن يغدر بها لأنزل به العقاب الذى يستحقه!.

ومالت نحوى هامسة :

ـــ انصحها من فضلك ، ستعمل برأيك ، .. إنها تحبك ..

وأثارنى فعل الحب فبذلت أقصى جهدى لكى أكظم غضبى .

* * *

ـــ إنها من أصل طيب ، شبه أرستقراطى ، ولكنها لم تعد قديسة، للعمل ظروفه القهرية كما تعلم، ولولاى لأخليت شقتها وصودرت أموالها..

* * *

الريح تسفع النوافذ بوابل المطر . هدير الأمواج يقتحم أعماق . لم أشعر بدخول زهرة حتى وضعت قدح الشاى على الترابيزة أمامى . رحبت بها لتنتشلنى من أفكارى السوداء . تبادلنا ابتسامة . قدمت لها قطعة البسكوت . وقلت ضاحكا :

ـــ ها هو ثانى عريس ترفضينه !

رمقتني بحذر فواصلت قائلا :

ـــ أتريدين رأيي يا زهرة ؟. إني أفضل محمود عَلَى سرحان !

فقطبت قائلة :

ـــ لأنك لا تعرفه ..

ـــ وهل عرفت الآخر كما يجب ؟

فقالت بحدة :

ـــ لا أحد يصدق أنني كفء له !

ـــ قولي ذلك لغير أصدقائك !

ـــ إنه لا يفرق بين المرأة وبين الحذاء !

وضحكت فقصصت على نادرة من تصرفاته وآرائه . فقلت :

ـــ إنك تستطيعين أن تردى له التحية بأحسن منها ..

ولكنها تحب سرحان وستظل تحبه حتى يتزوج بها أو يغدر بها . وقلت :

ـــ زهرة .. إني أحترم رأيك وفعلك ، بودي أن أهنئك في القريب !

* * *

تخلفت عن السفر إلى القاهرة لإنجاز أعمال عاجلة وهامة . اتصلت بي درية بالتليفون مستغيثة من وحدتها المضنية . ولما تلاقينا في الأسبوع التالي قالت لي بعصبية :

ـــ جاء دوري لمطاردتك !

فقبلت يدها ، ونحن نستقل بحجرة منفردة بفلورينا ، ثم أوجزت لها أخبارى المتضمنة عذرى . وكانت قلقة متوترة الأعصاب فأكثرت من التدخين ، ولم أكن على حال أحسن . وقلت لها :

ـــ كنت أدفن نفسى فى العمل ولكننى أطفو رغم إرادتى ويهمس لى صوت غريب بأن ثمة خطأ فى العمل ، أو أن أمرا هاما فاتنى تدبره ، وكثيرا ما أكتشف أننى نسيت شيئا ضروريا فى البنسيون أو فى المكتب ..

فقالت بلهفة :

ـــ ولكننى وحيدة ، ولم أعد أحتمل وحدتى ..

ـــ نحن فى دوامة ، ولا نحرك يدا لحل مشكلتنا ..

ـــ والعمل ؟

تفكرت قليلا . مطاوعا المنطق وحده . ولكن أى منطق ؟. لا منطق لمن تعتصره الانفعالات . كأنما كنت أنقب عن تحديات جديدة . قلت :

ـــ لو سألنا العقل لأجاب بأن علينا أن نفترق أو أن نسعى إلى الطلاق !

اتسعت عيناها الرماديتان فى فزع ، ربما لاستجابتها لا لنفورها ، وهتفت :

ـــ الطلاق !



لو سألنا العقل لأجاب بأن علينا أن نفترق أو أن نسعى إلى الطلاق !

فقلت بهدوء :

ثم نبدأ حياة جديدة ..

— تصرف خارق !

— لكنه طبيعي ، وأخلاق إن شئت ..

أسندت رأسها إلى يدها ثم سكتت معلنة إفلاسها ، فقلت :

— ألم أقل إننا لا نحرك يدا ؟

ثم بعد فترة صمت :

— خبريني عن فوزى لو كان مكانى ؟

فقالت بصوت متهافت :

— أنت تعلم أنه يحبنى ..

— ولكنه لن يبقى عليك إذا علم أنك تحبيننى ..

— ألا يتسم تفكيرك بطابع نظرى جدا ؟

— ولكنى أعرف فوزى ، وهذا واقع !

— تصور .. تصور أن يقول ..

— إنك تخليت عنه وهو فى السجن ، أليس كذلك ؟، لا قيمة لذلك تتخلين عنه لا عن مبادئه ..

تخيلته وهو مستلق على الكنبة الاستديو ، يرمقنى بعينيه اللوزيتين السوداوين ، يدخن غليونه ، يعالج هموما لا حصر لها ولكنه لا يشك فى سعادته الزوجية !. وسألتنى :

ــ فيم تفكر ؟

فقلت :

ــ إن الحياة الحقة لا تجود بنفسها إلا للأكفاء ..

ثم تناولت يدها وأنا أقول : .

ــ لنشرب كأسين ولنكف عن التفكير ..

* * *

غبت عما حولي . صهرني الغضب . مذ علمت بتهجم حسني علام على زهرة صهرني الغضب . كان يجلس معي في المدخل عامر وجدي والمدام ولكنني لم أسمع من حديثهما إلا وشا . وعلمت أيضا بمشاجرة سرحان وحسني فتمنيت لو أنها استمرت حتى الموت ، الموت لكليهما . تمنيت أيضا أن أؤدب حسني ولكن لم يداخلني شك في قدرته على سحقي فكرهته حتى الجنون . وغادرت المدام المكان فنبهتني إلى ما حولي . نظرت إلى عامر وجدي فرأيته يرنو إليّ باهتمام ومحبة فتخففت من انفعالات القتال المحتدمة في صدري ، وتلقيت فكرة عجيبة بأن الرجل العجوز كان صديقا حميما لأبي أو لجدي . وراح يسألني عن أحلامي فقلت باقتضاب :

ــ يخيل إلى أنه لا مستقبل لي .

فابتسم ابتسامة مجرب لكل شيء،وكأنما مر به سخطي مرات بشتى الصور ، ثم قال :

ــ الشباب عدو الرضى ، هذا كل ما هنالك .

ـــ لقد استغرقنى الماضى فبت أعتقد أنه لا يوجد مستقبل !

قال بجدية وقد زايل الابتسام وجهه :

ـــ ثمة صدمة ، عثرة ، سوء حظ ، ولكنك تستحق الحياة بكل جدارة ..

كرهت أن أناقش معه همومى ، حتى المشروع منها ، فتساءلت متهربا :

ـــ ماذا عن أحلامك أنت يا أستاذ ؟

ضحك طويلا ثم قال :

ـــ نوم الشيوخ يقل للدرجة التى تنعدم فيها الأحلام ، غير أنى أتمنى ميتة رفيقة .

ـــ إذن فالموت أنواع ؟

ـــ ما أسعد الرجل الذى نام عقب سهرة طيبة ثم لم يصح إلى الأبد !

فسألته مأخوذا بلذة محادثته :

ـــ أتعتقد أنك ستبعث ذات يوم ؟

ضحك مرة أخرى وقال :

ـــ أجل ، إذا جمعت برامجك فى كتاب !

* * *

يعجبنى جو الإسكندرية .. لا فى صفائه وإشعاعاته الذهبية الدافئة .. ولكن فى غضباته الموسمية .. عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم .. ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب .. ثم تتهادى

دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كنحنحة الخطيب . عند ذاك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل ..وتتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون .. ويدوى عزيفها فى الآفاق .. ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق .. ويجعجع الرعد حاملا نشوات فائرة من عالم مجهول .. وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب .. وينهل المطر فى هوس فيضم الأرض والسماء فى عناق ندى .. عند ذاك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد ..

وعند ذاك فقط يجلو الصفاء ويطيب ..إذا انقشعت الظلمات .. وأسفرت الإسكندرية عن وجه مغسول .. وخضرة يانعة . وطرقات متألقة . ونسائم نقية . وشعاع دافئ . وصحوة ناعمة ..

عايشت العاصفة من وراء الزجاج . حتى نعمت بالصفاء . شىء حدثنى بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة فى قلبى... وتخط طريقا ما زال غامض الهدف .. أو تضرب موعدا فى غمغمة لم تفهم بعد .

دقت الساعة الكبيرة فوضعت أصبعى فى أذنى حتى لا أعـرف الوقت . ثم ترامت إلى أصوات غريبة . استمرت فى إصرار وارتفعت . مشاحنة ؟.. شجار ؟. إن الأحداث التى تقع فى البنسيون تكفى قارة بأكملها . وحدس قلبى بأن زهرة محورها كالعادة . وفتح باب بعنف فوضحت الأصوات تماما . زهرة وسرحان !. وثبت إلى البـاب ففتحته . رأيتهما فى الصالة وجها لوجه كديكين والمدام تحول بينهما .

وكان سرحان يصرخ فى غضب هادر :

— أنا حر .. أتزوج بمن أشاء .. سأتزوج من علية !

زهرة غاضبة كبركان ، عز عليها أن يعبث بها ، أن تنهار آمالها ثم ترتد وهى الخاسرة . إذن قد نال أربه ويريد أن يولى وجهة أخرى . اقتربت منه ثم أخذته من يده عائدا إلى حجرتى . كان ممزق البيجاما فى أكثر من موضع ، دامى الشفتين . وراح يصيح :

— شريرة متوحشة !

فطالبته بالهدوء ولكنه تمادى فى الغضب وهو يقول :

— تصور .. تريد حضرتها أن تتزوج منى !

فعدت أنصحه بالهدوء فصاح :

— مجنونة فاجرة !

وضقت به فسألته :

— لم أرادت أن تتزوج منك ؟

— اسألها .. اسألها ..

— إنى أسألك أنت ..

نظر إلىّ لأول مرة فى انتباه فقلت :

— لا بد من سبب يبرر طلبها ؟

تحول الانتباه فى عينيه إلى حذر ثم سألنى :

— ماذا تعنى ؟

فقلت بغضب :

— أعنى أنك وغد ...

— أستاذ !

فبصقت فى وجهه وأنا أصرخ :

— على وجهك ، ووجه كل وغد ، وكل خائن ..

وسرعان ما اشتبكنا فى عراك عنيف . بيد أن المدام اقتحمت الحجرة قبل أن يستفحل الضرب .

دخلت بيننا وهى تقول :

— من فضلكم . لقد ضقت بذلك كله . سووا خلافاتكم فى الخارج لا فى بيتى !

وذهبت به خارج الحجرة .

* * *

مظلم الرأس ، مثقل القلب . مشتت الفكر ، هكذا ذهبت إلى دار الإذاعة . ولما دخلت حجرتى رأيت امرأة جالسة أمام مكتبى . امرأة ؟! درية !. أجل درية دون غيرها . عقلت الدهشة لسانى ، تسمرت أمامها لحظات ، ثم انجابت الظلمات عن رأسى فهتفت :

— درية !

وابتسمت . يجب أن أبتسم . بل يجب أن أتهلل . وأخذت يدها بين يدى فضغطت عليها بحنو ، واجتاحتني عاطفة ثرية بالفرح ، اكتسحت القلق والمخاوف التى تنهش قلبى ، وقلت :

— يا لها من مفاجأة .. أى سعادة يا درية ..

قالت وهي تطالعني بوجه شاحب :

ـــ كان يمكن أن أنتظر يومين حتى نلتقى ولكننى لم أستطيع الانتظار ، واتصلت بك تليفونيا فلم أجدك !

وساورنى قلق لم أعرف كنهه . جئت بكرسى فجلست قبالتها وأنا أقول :

ـــ ليكن خيرا ما جاء بك يا درية ..

قالت وهى تغض البصر :

ـــ بلغتنى رسالة من فوزى عن طريق صحفى صديق ..

خفق قلبى . إنه الصحفى الصديق . لا خير هناك على وجه اليقين . قالت :

ـــ إنه يمنحنى الحرية للتصرف فى مستقبلى كما أشاء !

اشتد خفقان قلبى . وضح الأمر بحذافيره ولكنى صممت على تقطيره نقطة نقطة . والعجب أن الاضطراب شملنى لدرجة لم أنعم فيها بأى شعور مريح أو سعيد . بل خيل إلى أننى غير سعيد . وسألت بعناد :

ـــ ماذا يعنى ؟

ـــ واضح أنه علم بأمرنا !

ـــ ولكن كيف ؟

ـــ بأى طريق كان ، ليس ذلك بالمهم !

تبادلنا نظرا حائرا . شعرت بأننى أكبل بالحديد . وقلت لنفسى

كان يجب أن أحظى بقدر من السعادة أو الارتياح ، فماذا جرى ؟.
وسألت :

— ترى هل غضب ؟

فقالت بعصبية :

— لقد تصرف على أى حال كما توقعت أنت !

أحنيت رأسي فى تسليم ذاهل ، فقالت :

— عليك الآن أن تمدنى برأيك ؟!

أجل ، لا يبقى إلا أن أعطيها إشارة البدء ، أن تمضى الإجراءات فى سبيلها . أن أبنى عش الزوجية كما اقترحت وتمنيت . ها هو الحلم يستأذننى ليتسرب إلى عالم الحقيقة . ولكننى غير سعيد ، يجب أن أكون صريحا مع نفسى ، بل أبعد ما يكون عن السعادة !. إنى قلق وخائف . وليس ما بى شعور بالندم أو الخجل . إنه ملتصق بذاتى دون غيرى . ملكى الشخصى . وإذا لم أكن فى موقف دفاع عن سعادتى ففى أى موقف أكون ؟.

وقالت بنبرة لا تخلو من استياء :

— كلما فكرت وأمسكت عن الجواب . أشعرتنى بأننى منبوذة فى وحدة قاتلة !

ولكننى كنت فى حاجة إلى المزيد من التدبر . وكان الخوف والقلق قد بلغا بى مبلغا لم أعد أكترث فيه لعواطفها أو حتى مجاملتها . أفقت من سحرها كأن هراوة صكت رأسى . تحررت من سيطرتها . وارتفعت فى

باطنى المضطرب القلق المذعور موجة سوداء من النفور والقسوة . لم أجد لذلك تفسيرا إلا يكن الجنون نفسه .

وتساءلت هى بحدة :

— لِم لا تتكلم ؟

قلت بهدوء مخيف :

— درية .. لا تقبلى هبته الكريمة !

حملقت فى وجهى . حملقت فى وجهى ذابلة غير مصدقة تعيسة غاضبة ، فقلت ممعنا فى وحشيتى :

— افعلى ذلك بلا تردد !

— أنت تقول ذلك ؟!

— نعم ..

— إنه لمضحك ، إنه لمبك ، إنى لا أفهم شيئا ..

فقلت بيأس :

— فلتؤجل الفهم إلى حين ..

— لا يمكن أن تدعنى بلا تفسير !

— لا أملك أى تفسير ..

انبثق شعاع غضب من أعماق عينيها الرماديتين وقالت :

— إنك تجعلنى أشك فى عقلك !

— أعتقد أننى أستحق ذلك !

فصاحت بحنق :

ـــ أكنت تعبث بى طيلة الوقت ؟

ـــ درية !

ـــ صارحنى .. أكنت تكذب علىّ ؟

ـــ أبدا ..

ـــ إذن هل مات حبك فجأة ؟

ـــ أبدا .. أبدا ..

ـــ إنك تصر على العبث بى !

ـــ ليس عندى ما أقوله ، إنى أكره نفسى ، هذا ما يجب أن أصارحك به ، وعليك ألا تقتربى من رجل يكره نفسه ..

عكست عيناها المحملقتان هبوطا فى قواها الداخلية . ثم انتزعت بصرها من وجهى بازدراء وحنق . ولبثت فترة صامتة كأنما لا تدرى ماذا تصنع بنفسها . ثم تمتمت وكأنما تحادث نفسها :

ـــ إنى حمقاء . وعلىّ أن أدفع ثمن حماقتى . لم تشعرنى بالثقة قط ، ولا الأمان ، كيف تجاهلت ذلك ؟. لقد دستنى فى اندفاعك المجنون . أجل إنك مجنون ..

تخشعت كطفل مذنب مطيع . ولذت بالصمت كذريعة أخيرة لإنهاء الموقف المعذب . تجنبت النظر نحوها . تجاهلت وقع عينيها . صوت أصابعها فوق حافة المكتب . نفخها المضطرم ، تحولت إلى جثة هامدة ..

وجاءنى صوتها متهافتا :

ــ أليس لديك ما تقول ؟

فثابرت على الموت . قامت بشيء من العنف فقمت بدوري . غادرت المكان فتبعتها حتى بلغنا الطريق . وعبرناه معا . ثم أوسعت خطاها معلنة رفضها لمرافقتي فتوقفت . أتبعتها عيني كمن ينظر فى حلم . وتضخم الحلم وامتد رواقه . وتراجع الواقع حتى توارى وراء الأفق . رنوت إلى مشيتها المألوفة المحبوبة بغرابة ، وبحزن ، وحتى تلك اللحظة الجنونية لم يغب عني أن ذاك الكائن المخلخل المقهور الذى يختفي رويدا فى تيار السابلة . لم يغب عني أنه حبي الأول وربما الأخير فى هذه الدنيا . وباختفائها هويت إلى الحضيض . ورغم شقائي المؤكد فقد داخلني ارتياح غامض غريب .

* * *

البحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء ؟. والشمس تهوى إلى المغيب مرسلة شعاعا ماسيا يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيوم ؟. والهواء يلاعب سعف النخيل فى غابة السلسلة بمداعبات شفافة رقيقة فأين الرياح الهوج المزلزلة ؟.

ونظرت إلى وجه زهرة الشاحب ، ودموعها الجافة على الوجنتين . ونظرتها الكسيرة الذابلة ، فخيل إلى أننى أنظر فى مرآة ، وأن الحياة تطالعنى بفطرتها الخشنة الفظة الرهيبة ، بإمكانياتها المجردة ، بصمودها الصلب المغطى بالأشواك ، بآمالها الخبيثة فى قوقعة مسمومة الأطراف ،

بروحها الأبدية التى تجذب إليها المغامرين واليائسين فتقدم لكل غذاءه . لقد سلبت الشرف وهجرت بلا كبرياء . أجل إنى أنظر فى مرآة .

رمقتنى بتحذير وقالت :

ـــ لا لوم ولا عتاب من فضلك .

فقلت بحزن :

ـــ سمعا وطاعة .

لم أكن أفقت بعد من تجربة درية المريرة ، ولا وجدت الوقت الهادئ لتحليلها وفهمها . ولكننى كنت ممتلئا بها حتى الجنون . وكنت على يقين من أن العاصفة آتية لا ريب فيها . وأن ثمة ذروة للمأساة لم أبلغها بعد . وكان من المستحيل أن أبقى صامتا فقلت مواسيا :

ـــ قد يكون الخير فيما حصل ..

لم تنبس .. فسألتها :

ـــ ماذا عن المستقبل ؟

تمتمت بلا روح :

ـــ إنى أحيا كما ترى ..

ـــ وأحلامك يا زهرة ؟

ـــ سأستمر ..

قالتها بعناد وإصرار ولكن أين الروح ؟. قلت :

ـــ سيذهب الحزن كأن لم يكن ، وسوف تتزوجين وتنجبين أطفالا ..

قالت بمرارة :

ــ خير ما أفعل أن أتجنب جنس الرجال ..

ضحكت . أول ضحكة منذ دهر . إنها لا تدرى بالدوامة التى تعصف بى ، ولا بالجنون الذى يتربص بى .

وخطرت لى فكرة ، أخطرت فجأة وبلا مقدمات .؟ كلا لا شك أن لها جذورا مطمورة لم أفطن لها . إنها جنونية ولذلك فهى مغرية . فكرة غريبة يا زهرة وأصيلة . وغير بعيد أن تكون هى ما أبحث عنه . أن تكون البلسم لالتهاباتى المزمنة . نظرت إليها بحنان ، وقلت :

ــ زهرة ، لن تطيب لى الحياة وأنت حزينة ..

اغتصبت من شفتيها ابتسامة شكر فقلت وموجة الحماس ترتفع بى درجة جديدة :

ــ زهرة.. اطردى الأحزان .. كونى كما كنت دائما . خبرينى متى أرى ابتسامة السعادة على شفتيك !

ابتسمت برأس حان . ارتفعت موجة الحماس درجة جديدة . ها هى الفتاة المنفية الوحيدة المهجورة المسلوبة الشرف، . وقلت بانفعال غريب :

ــ زهرة .. لعلك تجهلين كم أنك عزيزة عندى .. زهرة .. اقبلينى زوجا لك !

التفتت نحوى بحركة سريعة . ذاهلة وغير مصدقة . انفـرجت شفتاها لتتكلم ولكنها لم تنبس بحرف .

قلت وأنا واقع تحت سيطرة انفعالى الغريب :

ـــ اقبلينى يا زهرة .. إنى أعنى ما أقول !

قالت ولما تفق من دهشتها :

ـــ لا ..

ـــ فلنتزوج فى أقرب فرصة ..

تحركت أصابعها القوية بعصبية وهى تقول :

ـــ إنك تحب واحدة أخرى !

ـــ لم يكن هناك حب ، إنها حكاية اختلقها خيالك ، فأسمعينى جوابك يا زهرة !

تنهدت .. تنهدت وهى ترمقنى فى ارتياب وقالت :

ـــ أنت كريم نبيل ، وعطفك يدفعك فى طريقه بلا تفكير ، كلا ، لن أقبل ذلك ، وأنت لا تعنيه ، كلا ، لا تعد إلى ذلك ..

ـــ إذن ترفضيننى يا زهرة ؟

ـــ إنى أشكرك ، ولكن ليس هناك طلب حتى أرفضه أو أقبله ..

ـــ صدقينى ، أقسم لك ، امنحينى وعدا .. أملا .. وسأنتظر !.

قالت بإصرار ودون أن تأخذ كلامى مأخذ التصديق الحقيقى :

ـــ كلا ، إنى أشكر عطفك وأقدره ، ولكننى لا أستطيع أن أقبله . عد إلى فتاتك ، إن كان هناك خطأ فلا شك أنها هى المخطئة ولكنك ستسامحها ..

ـــ زهرة .. صدقينى ..

— كلا .. لا تعد إلى ذلك من فضلك .

قالتها بإصرار رهيب ، ثم تبدى الإعياء فى أعماق عينيها ، وكأنما ضاقت بالموقف كله فشكرتنى بإيماءة وهى تمضى خارجا بتصميم قاطع .

ارتددت إلى الفراغ . نظرت فيما حولى كأنما أبحث عن غوث . متى يقع الزلزال ؟، متى تهب العاصفة ؟. وماذا قلت ؟. كيف قلته ؟. ولم ؟. أيوجد شخص آخر يتخذ منى وسيطا له كلما شاء هواه ؟. وكيف يمكن أن أضع حدالذلك كله ؟

* * *

كيف يمكن أن أضع حدا لذلك كله ؟.

كررت السؤال وأنا أغادر الحجرة بجنونى . رأيت فى الصالة سرحان البحيرى وهو يتكلم فى التليفون ، ولمحت حقيبته وراء الباب مؤذنة برحيله الأبدى . نظرت إلى مؤخر رأسه المائل إلى سماعة التليفون بمقت . كأنما أنظر إلى عدو لدود ورائى . إنه يملأ حياتى أكثر مما تصورت . وإذا اختفى حقا إلى الأبد فماذا أصنع بحياتى ؟. وكيف أعثر عليه مرة أخرى ؟. إنه يشدنى إليه شدا . كالنور والفراشة . إنه الجرعة السامة التى قد أتداوى بها .

وارتفع صوته الرنان وهو يقول للتليفون .

— طيب .. الساعة الثامنة مساء .. سأنتظرك فى كازينو البجعة !.

إنه يضرب لى موعدا .. وربما يحدد لى هدفا . إنه يدعو جنونى إلى



جاء البطل المنشود .. جاء يتقدمه طلبة مرزوق !

الرقص . صوته الرنان يغريني بالانتحار . إنه يأمرني بأن أتبعه . وسيمن على بانتشالى من الفراغ .

تراجعت إلى حجرتى خشية أن أندفع مع عواطفى الجامحة . ولما غادرت البنسيون لم يكن به أثر لسرحان .

ذهبت إلى أثنيوس . فكرت أن أكتب رسالة إلى درية ولكن الجنون عصف برغبتى كما عصف بعقلى .

واتخذت مجلس فى ركن البهو الداخلى بكازينو البجعة . كمن قرر الهجرة فودع المدينة وهمومها جميعا . وجدت شيئا من الراحة وشيئا من صفاء الذهن . توارى الركن وراء موائد مشغولة برجال ونساء . وطلبت كأسا من الكونياك ثم أتبعتها بأخرى وعيناى مصوبتان نحو المدخل . وقبيل الثامنة بربع ساعة جاء البطل المنشود . جاء يتقدمه طلبة مرزوق !. أكان هو الشخص الذى كلمه فى التليفون ؟. ومتى جمعت بينهما هذه الصداقة الطارئة ؟. جلسنا على مبعدة عشر موائد من مجلسى ، وجاءهما الجرسون بكونياك كذلك . وتذكرت أننى وافقت صباحا — على مائدة الإفطار — على اقتراح لطلبة مرزوق بأن نمضى سهرة رأس السنة فى المونسنيير !. أجل وعدت بالاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة . ومضيت أنظر إليهما من وراء وهما يشربان ويتبادلان الحديث والضحك .

* * *

حرصت على ألا يرانى ولكنه لمحنى فى المرآة . تجاهلته ومضيت وأنا

ألعن سوء الحظ . كانت الطريق خالية تماما وكنت أسمع أطيط حذائه ورائى . وأبطأت فى السير حتى أوشك أن يدركنى وكنا أوغلنا فى الطريق الخالية ، وحاذانى وهو يرمقنى بارتياب ، وتباطأ فى السير حتى لا يعرض لى ظهره بلا دفاع ، وقال :

— إنك تتبعنى .. لقد رأيتك من البداية !

فقلت ببرود :

— نعم ..

ازداد حذرا وهو يتساءل :

— لماذا ؟

نزعت المقص من معطفى وأنا أقول :

— لأقتلك ..

تحجرت عيناه على المقص وهو يقول :

— أنت مجنون بلا شك ..

وتوثب كلانا سواء للهجوم أو للدفاع ، ومضى يقول :

— لست بولى أمرها !..

— ليس من أجل زهرة .. ليس من أجل زهرة فقط ..

— إذن لماذا ؟

— لا حياة لى إلا بقتلك !

— ولكنك ستقتل أيضا ، أنسيت !

فاجتاحنى شعور المهاجر الذى ودع المدينة بكافة همومها ، وتمثلت

به . وإذا به يسألنى :

ــ كيف عرفت مكانى ؟

ــ سمعتك فى البنسيون وأنت تتكلم فى التليفون .

ــ وعزمت عند ذاك على قتلى ؟

ــ أجل .

ــ ألم تعزم على ذلك من قبل ؟

ذهلت ، لم أجب ، ولكننى لم أتراجع .

ــ إنك فى الواقع لا تريد قتلى !

ــ بل أريده وسأقتلك ..

ــ هبك لم ترنى و لم تسمعنى فى تلك اللحظة ؟

ــ ولكنى رأيتك وسمعتك .. وسأقتلك .

ــ ولكن لماذا ؟

ذهلت مرة أخرى ولكن تأكدت نيتى على القتل ورسخت إلى الأبد. وصحت به :

ــ لذلك أقتلك ، خذ .. خذ ..

* * *

ترامت إلىّ ضحكة سرحان وهو يحادث طلبة مرزوق . وأكثر من مرة غادر مكانه ثم رجع إليه .

لعنت طلبة مرزوق وقلت إنجيئه قد أفسد كل شيء . غير أنه قام بعد مضئ ساعة أو نحوها فصافح بسرحان مودعا وذهب . بقى سرحان

وحده فتلهفت على اللحظة التى يمحى فيها العذاب . وواصل الشراب ولكنه كان يتلفت كثيرا نحو مدخل المكان . ووضح فى لفتاته التوتر والقلق . أينتظر شخصا آخر ؟. هل يجيء الآخر فيضيع الفرصة إلى الأبد ؟.

ودعاه الجرسون إلى التليفون فمضى مسرعا ملهوفا . غاب بعض الوقت ثم رجع إلى مجلسه واجما متجهما . رجع فى الحقيقة متهدما . ماذا حدث ؟. لم يجلس ، دفع حسابه ثم غادر المكان . راقبته من الزجاج الفاصل بين البهو والداخل فرأيته متجها نحو البار ، ربما لمزيد من الشراب . تربصت به حتى فارق مكانه ماضيا نحو الباب الخارجى فغادرت مجلسى فى هدوء وتمهل . ولدى خروجى كان قد عبر الطريق . أحكمت المعطف حولى اتقاء لهواء خفيف ولكن لاسع كالسياط . الطريق خال تماما ، وأضواء المصابيح متلفعة بهالات من الضباب ، وهسيس النبات على الجانبين يخرق الصمت الشامل . سرت حذرا ، أكاد ألاصق الجدران ، ولكنه بدا غائبا فى أفكاره ذاهلا عما حوله منهمكا بكليته فى عالم وحده ، حتى إنه نسى المعطف مطروحا على ذراعه . ماذا حصل ؟. لقد ظل طيلة الوقت يتحدث ويضحك فماذا قلبه ؟. أما أنا فقد تركزت فى فكرة واحدة كأنما هى وجه الخلاص الوحيد لى . وإذا به يميل إلى الطريق الزراعى الموصل للبالما . طريق خال ومظلم ، مهجور تماما فى تلك الساعة ، ماذا يروم منه ؟، وأى قضاء يتصرف كأنما ليسلم عنقه بين يدى ؟!. أسرعت قليلا حتى لا أضله وأنا

ألامس سياج الحدائق ، وقد غرقنا معا فى الظلام . وجعلت أتوثب وأنا أتابع شبحه ، ولكنه توقف فجأة فوقفت عن التقدم وأنا أرتعد . سيقع شيء ما . ربما جاء شخص غريب ، علىّ أن أنتظر . وإذا بصوت يند عنه كلمة .. إشارة صوتية . قىء !. وتحرك ببطء مسافة قصيرة ثم سقط على الأرض . سكران مخمور . لقد شرب فوق طاقته وها هو يفقد الوعى . وانتظرت وأنا أرهف السمع ولكن لم يقع شيء . اقتربت منه حتى كدت أعثر به . انحنيت فوقه ، أردت أن أناديه ولكن صوتى انحبس . لمست جسمه ووجهه فلم يستجب غرق تماما فى غيبوبة الخمر ، وسوف يفارق العالم بلا ألم أو خوف ، كما يتمنى عامر وجدى العجوز . هززته برفق فلم ينتبه ، هززته بشيء من الشدة فلم ينتبه أيضا ، حركته بعنف فلم تبدر منه بادرة أمل فى إفاقة . انتصبت قامتى فى حنق . دسست يدى لأستخرج المقص ولكننى لم أجد له أثرا . فتشت عنه فى جميع مظانه عبثا . أسهى على أن آخذه !. كنت مضطربا ، متأزما ، يائسا ، ثم جاءت المدام لتستطلع رأيى فى سهرة رأس السنة . أجل ، لقد غادرت الحجرة دون أن أحقق الغرض الوحيد من رجوعى إليها . تضاعف غضبى على نفسى ، تضاعف غضبى على السكران المنعم بغيبوبة لا يستحقها . ركلته فى جنبه . ركلته مرة أخرى بقوة أشد . ركلته الثالثة بعنف . وجن جنونى فانهلت عليه بطرف الحذاء فى شتى أطرافه حتى أفرغت غضبى وهياجى . تراجعت إلى السياج وأنا أترنح من الإعياء مرددا « لقد قضيت عليه ». كنت أتنفس بصعوبة

وأشعر بتقزز ، وسيطر على إحساس مضن بأننى مجنون يمارس حركات جنونية عنيفة فى الظلام . وتذكرت درية . تذكرتها وهى تنظر فى أعماق عينى ، وهى تضيع فى زحمة الطريق ..

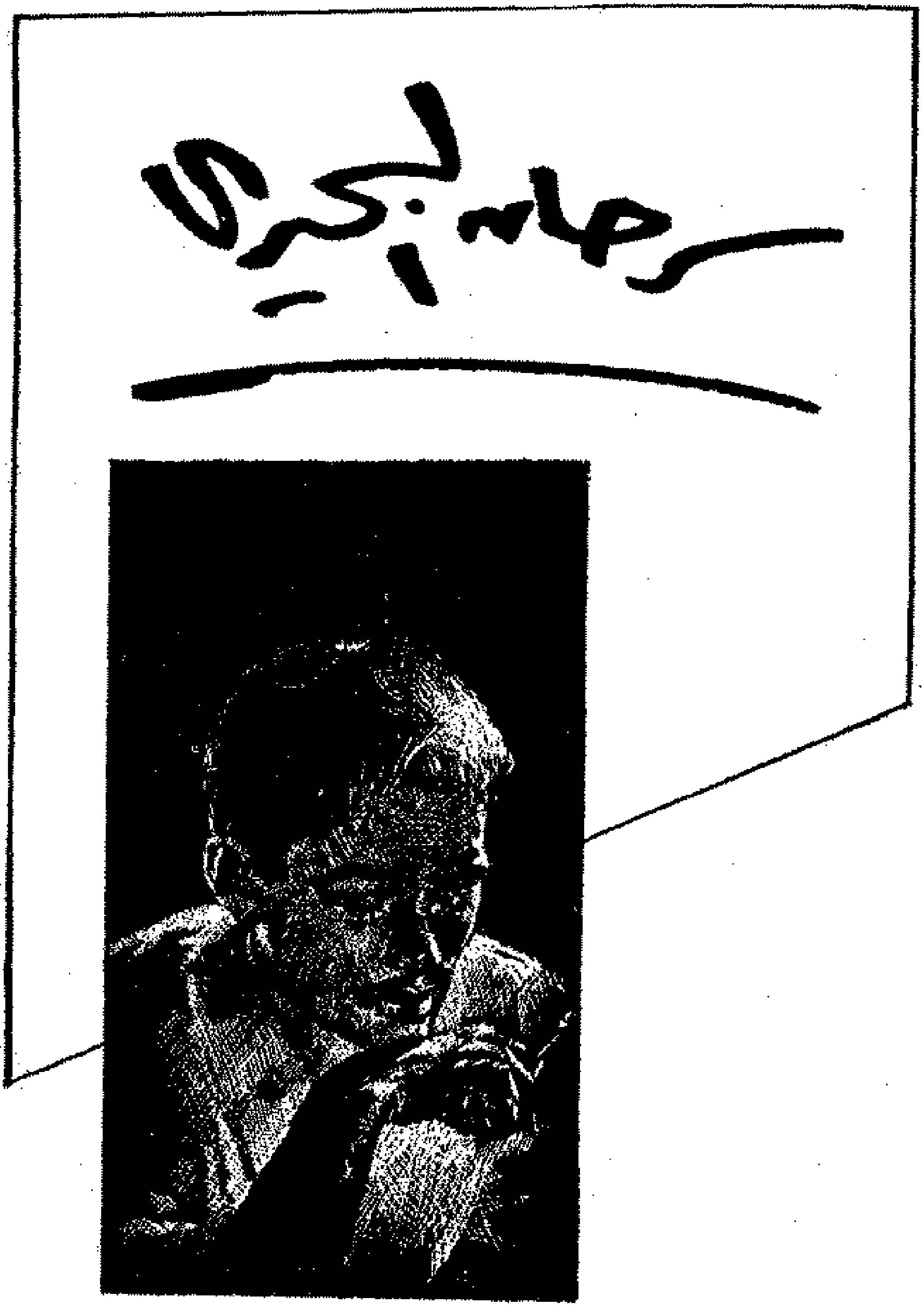
ورجعت إلى البنسيون مشيا على الأقدام . تخيلت زهرة وهى تغط فى نوم مرهق ثقيل خانق .

وتناولت حبة منومة ثم استلقيت على الفراش .

* * *

دفعنى بإصرار وهو يقبض على منكبى فصرخت غاضبا :

— إنك تقضى علىّ إلى الأبد .



٤

سرحان البحيري

هاى لايف .

معرض أشكال وألوان مثير للشغب ، شغب البطون والقلوب . موجة هائلة من الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهية ، العلب الحريفة والمسكرة ، اللحوم المقددة والمدخنة والطازجة ، الألبان ومستخرجاتها ، القوارير المضلعة والمنبسطة والمبططة والمربعة والمنبعجة المترعة بشتى الخمور من مختلف الجنسيات .

لذلك تتوقف قدماى بطريقة أتوماتيكية أمام كل بقالة يونانية .

ـــ وهواء الخريف يلفحني بدسامته الجنسية . وعيناى ترنوان إلى الفلاحة بين الزبائن أمام الطاولة . طوبى للأرض التي غذت وجنتيك ونهديك . وأنا أراجع أسعار القوارير تحتها . امتد إليها بصرى من موقفى فوق الطوار ، مارا فوق برميل الزيتون ، نافذا من فرجة بين الهيج

والديوارس ، مائلا عن قطاعة البسطرمة ، حتى استقر على عارض وجهها الأسمر المرفوع إلى البقال ذى الشارب البلقانى . وقد تأبطت حقيبة من القش المجدول ملئت بالمشتريات ، وقد برزت من جانب غطائها رأس زجاجة الجونى ووكر .

تصديت لها وهى تغادر المحل فتلاقت عينانا ، ارتطمت نظرتها المستطلعة الصلبة بنظرتى الضاحكة المعجبة . سارت فى طريقها فسرت وراءها ولا غاية لى إلا تحية الجمال ذى العبير الريفي الذى أحبه . تعرضنا فى طريق الكورنيش لدفقات هواء الخريف المشعشع بالشعاع الوانى الغارب ، وهى تتقدمنى فى مشية عسكرية سريعة حتى انعطفت فيما وراء عمارة الميرامار . التفتت ناحيتى وهى تمرق إلى مدخل العمارة فتلقيت نظرة عسلية محايدة !

وتذكرت موسم جنى القطن فى قريتنا ..

* * *

كان عبيرها قد تبخر من نفسى أو كاد عندما رأيتها للمرة الثانية فى نهاية الأسبوع . لمحتها أمام معرض محمود أبو العباس وهى تبتاع الجرائد . أدركتها قبل أن تذهب وأنا أقول :

ــ صباح الفل ..

رد محمود أبو العباس التحية دونها ولكنها نظرت نحوى فتلقيت نظرتها بعين صقر تود أن تشدها إليها إلى الأبد . سرعان ما ذهبت وقد هيجت عبيرها من جديد فملأ حواسى جميعا ، وقلت لمحمود :

ـــ هنيئا لك !

فضحك فى براءة فسألته :

ـــ من أين ؟

فأجاب دون مبالاة :

ـــ تعمل فى بنسيون ميرامار !

رددت إليه مبلغا كنت اقترضته فى زنقة من مطالب الأسرة ثم مضيت أتمشى حول الفسقية فى انتظار المهندس على بكير . فلاحة حلوة ، حلوة بكل معنى الكلمة ، وها هى تسلب لبى . انتشيت بالانفعال وشعاع الشمس وبالوجوه الكثيرة الواقعة فى حبائل الانتظار حولى .

وتذكرت موسم جنى القطن فى قريتنا .

* * *

جاء على بكير حوالى العاشرة صباحا فذهبنا إلى مسكنى بشارع الليدو بالأزاريطة . كانت صفية قد ارتدت ملابسها فذهبنا إلى سينما مترو . غادرنا السينما فى الواحدة بعد الظهر فسبقانى إلى الشقة وذهبت إلى هاى لايف لابتياع زجاجة نبيذ قبرصى .

رأيت الفلاحة واقفة تستبضع . كملاطفة الأحلام وابتسام الحظ . شيء نبهها إلى وقفتى فيما وراءها فالتفتت مستطلعة فرأت وجهى المبتهج . أرجعت رأسها ولكننى لمحت فى مرآة تتوسط أسرابا من قوارير الخمر ابتسامة انفرجت عنها شفتاها الورديتان . رأيت ـــ فيما يرى الحالم اليقظان ـــ نفسى مقيما فى البنسيون ، أستمتع فيه بالدفء

والحب . لقد تسللت إلى نفسي أنعشت قلبي كما حدث له مرة فى كلية التجارة . وهذه الابتسامة صريحة كشمس النهار المشرق . فلاحة .. بعيدة عن منبتها .. غريبة فى بنسيون .. غريبة كالكلب الضال الأمين فى سعيه وراء صاحب .

وقلت لها ونحن نغادر المحل :

ـــ لولا ضوء النهار لأوصلتك ..

فقطبت ساخرة وهى تقول دون غضب حقيقى :

ـــ دمك خفيف !

فحلمت أحلاما سعيدة بعبير الريف والحب البكر ..

* * *

وجدت على بكير متربعا فوق شلته بحجرة الشلت ، وصفية تعد الطعام فى المطبخ . ارتميت إلى جانبه ثم وضعت الزجاجة أمامى وأنا أقول :

ـــ نار .. هذا هو آخر تعريف علمى للأسعار ..

شد على ذارعى ثم سألنى :

ـــ مرت أزمة العام الدراسى الجديد ؟

ـــ مرت ولكن بغير سلام ..

أخبرته ذات يوم بتنازلى لأمى وإخوتى عن إيراد ميراثى من الأرض البالغ أربعة أفدنة ولكن ما الفائدة ؟!.

وقال مشجعا :

— ما زلت فى مقتبل العمر والحياة ، وأمامك مستقبل باهر ..

فقلت فى ضجر :

— حدثنى عن الحاضر من فضلك ، وخبرنى بالله عن معنى الحياة بلا فيللا وسيارة وامرأة ؟

ضحك على بكير موافقا ، وسمعت صفية حديثى وهى قادمة بالصينية فرمقتنى بنظرة ضارية وخاطبت المهندس قائلة :

— لا ينقصه شىء ولكنه جاحد ابن جاحدة !

فتراجعت قائلا :

— لا أملك فى الواقع إلا المرأة !

قالت صفية متشكية :

— نحن نعيش عيشة مشتركة منذ أكثر من عام ، عزمت على تعليمه الاقتصاد فجرفنى معه إلى التبذير !

شربنا وأكلنا ونمنا .

وغادر ثلاثتنا المسكن قبيل الغروب فذهبت صفية إلى الجنفواز ، وذهبت وعلى بكير إلى الكافيه دى لابيه . سألنى ونحن نحتسى القهوة :

— أما زالت تطمح إلى الزواج منك ؟

— مجنونة .. ماذا تتوقع من مجنونة ؟

— أخاف أن ..

— نجوم السما أقرب إليها منى ، ثم إننى مللتها جدا ..

نظرنا من الزجاج إلى جو رائق . شعرت بعينى على بكير وهما

تتحولان إلىّ فتجاهلتهما وأنا أستشعر نذير الخطر . ومالبث أن قال :

— لندخل فى الجد ..

حولت نظرى إليه. صرنا وجها لوجه. لا مفر الآن ولا مهرب. قلت:

— لندخل فى الجد ..

فقال فى هدوء غريب :

— حسن ، تمت دراسة الموضوع بدقائقه !

انقبض قلبى .

انقبض قلبى . نظرت إليه بتسليم واهتمام وقلق . قال :

— أنا المهندس المختص وأنت المشرف على حسابات القسم، سواق اللورى مضمون، وكذلك الخفير، لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن..

ضحكت رغما عنى . نظر إلىّ متسائلا ، ثم أدركت النكتة التى أفلتت منه بلا قصد . ضحك أيضا ، ثم قطب قائلا :

— لكن، إنه مال بلا صاحب، تصور ما يعنيه لورى من الغزل فى السوق السوداء، عملية مأمونة ويمكن أن تتكرر أربع مرات فى الشهر ..

رحت أفكر وأحلم . وواصل على حديثه قائلا :

— الخطوات المشروعة سراب ، صدقنى . ترقيات وعلاوات ثم ماذا ؟، بكم البيضة ؟.. بكم البدلة ؟ وها أنت تتحدث عن فيللا وسيارة وامرأة ، حسن ، أفتنى إذن ؟، وقد انتخبت عضوا فى الوحدة فماذا أفدت ؟، وانتخبت عضوا فى مجلس الإدارة فماذا جاء ؟، وتطوعت لحل مشكلات العمال فهل فتحوا لك أبواب السماء ؟،

والأسعار ترتفع والمرتبات تنخفض والعمر يجرى، حسن ، ما الخطأ؟، كيف وقع؟، أنحن أرانب معمل؟! عزيزى.. اعدلنى على القبلة..

سألته وصوتى يقع من سمعى موقع الصوت الغريب :

ـــ متى نشرع فى العمل ؟

ـــ لن نبدأ قبل شهرين وربما ثلاثة ، يجب أن يكون التخطيط أساس عملنا ، وبعدها حياة خالد الذكر هارون الرشيد !

رغم أن مقاومتى الحقيقية كانت قد انهارت من زمن بعيد إلا أن قلبى ناء بهم ثقيل . وجعل ينظر فى عينى ببصر حاد . ثم سألنى :

ـــ هه ؟.

فانفجرت ضاحكا . ضحكت حتى دمعت عيناى ، وطالعنى وجهه طيلة الوقت صلبا باردا متسائلا . ملت نحوه فوق المائدة ثم همست :

ـــ أوكى أيها الزميل العزيز ..

شد على يدى ثم ذهب . لبثت وحدى موزعا بين أفكارى .

ـــ أستاذ .. سأحتاج قريبا إلى خبرتك ..

سألته عما يريد فقال :

ـــ سأشترى ـــ إن شاء الكريم ـــ مطعم بنيوتى عندما يقرر السفر إلى الخارج ..

ذهلت حقا. نظرت إلى معرضه المكتظ بالكتب والجرائد والمجلات، هل مكنه حقا من ادخار ما يبتاع به مطعم بنيوتى؟. وسألته:

ـــ ماذا تريد منى وأنا لا أعرف عن الطعام إلا أنه يؤكل ؟

ـــ أن تساعدنى فى الحسابات ..

وعدته خيرا ، ثم خطر لى أن أبيع الأفدنة وأشاركه ، فسألته :

ـــ لعلك تحتاج إلى شريك ؟

فأجاب بنفور واضح :

ـــ كلا ، لا أحب الشركة ، ولا أريد للمطعم أن يكبر فيلفت نظر الحكومة !

* * *

ذهبت إلى المقر العام للاتحاد الاشتراكى فاستمعت إلى محاضرة عن السوق السوداء ، أعقبتها مناقشة عامة . ولما انفض الاجتماع سمعت صوتا ينادينى وأنا ماض نحو الباب الخارجى . توقفت فى تيار الزحام وأنا أتلفت فرأيت رأفت أمين مقبلا نحوى . لم أكن رأيته منذ عهد الدراسة بالجامعة فتصافحنا بحرارة ، وسرنا فى الزحام حتى خرجنا إلى الطريق . أخبرنى بأنه حضر الاجتماع باعتباره ـــ مثلى ـــ عضوا فى الوحدة الأساسية لشركة المعادن المتحدة . واتجهنا نحو الكورنيش بإغراء من لطافة الجو ، ولما خلونا إلى أنفسنا أو كدنا أغرقنا فى الضحك معا . ضحكنا بلا مناسبة ظاهرة ولكن بدافع من ذكريات مشتركة لم يكن فى الإمكان نسيانها أو تجاهلها . ذكريات اجتماعية مماثلة ، شهدناها جنبا لجنب ، فصفقنا معا وهتفنا معا . حدث ذلك عندما كنا عضوين فى لجنة الطلبة الوفديين بالكلية . أتذكر ؟. طبعا منذا ينسى ؟ كنا وقتذاك أعداء الدولة . أجل .. أما اليوم فنحن الدولة . وجرى الحديث هكذا

بين الماضى والحاضر حتى قلت له :

— لا أصدق أنك — أنت بالذات — تبرأت من وفديتك ؟

فعاوده الضحك وهو يقول :

— وأنت لم تكن وفديا مخلصا ، واحدة بواحدة والبادى أظلم ..

ثم لكزنى بكوعه متسائلا :

— ولكن آأنت اشتراكى مخلص ؟

— طبعا ..

— لم من فضلك ؟

— للثورة أعمال لا يسع الأعمى إلا الإقرار بها .

— والبصير ؟

فقلت بجدية :

— إنى أعنى ما أقول

— إذن فأنت ثورى اشتراكى ؟

— بلا أدنى شك .

— مبارك ، خبرنى الآن أين نقضى ليلتنا ؟

فدعوته إلى الجنفواز . سهرنا حتى منتصف الليل . أردت أن أنتظر صفية ولكنها أخبرتنى بأنها مدعوة للذهاب مع زبون ليبى ..

* * *

كنت خارجا من سينما ستراند عندما رأيت الفلاحة الحلوة . كانت قادمة من شارع صفية زغلول بصحبة عجوز يونانية . رائقة السمرة

ساحرة النظرة ريانة الشباب . كان الطوار مكتظا بالخلق ، والهواء يهب منعشا حاملا رائحة البحر ، وهالة ضخمة من القطن المندوف تغشى القبة فتضفى على الجو لونا أبيض ناعسا ناعما كبهجة الرضى . مضتا تشقان طريقهما وسط الزحام فتراجعت خطوة موسعا وأنا أحييى بإغماضة من عينى . ابتسمت بحذر ، أجل .. استجابت باسمة فى حذر . وقلت لنفسى إن الصنارة قد نشبت . وشاع فى نفسى سرور كالسائل العذب الذى يخالط الريق بعد مضغ الفول الأخضر البكر الطازج المقطوف لتوه من الأرض الخضراء .

* * *

اختلست من وجهها نظرة وأنا أحتسى قهوة الأصيل . كانت عيناها منتفختين محمرتين من أثر النوم العميق ، وشفتاها الغليظتان منفرجتين ، فى أقبح أحوالها كالعادة ، وغافلة تماما عما دبرت لها . فقلت بلهجة أسيفة مصطنعة :

— صفية ..

رمقتنى مستطلعة فقلت :

— جدت ظروف سخيفة ولكن علينا أن نتوافق معها ؟

فاستقرت فى عينيها نظرة حذرة ، وهزت رأسها داعية إياى إلى الإفصاح فقلت :

— سنضطر إلى تغيير نظام حياتنا ، أعنى الإقامة فى شقة واحدة !

قطبت فتجمع الغضب بين حاجبيها كما يتجمع ماء المطر فى نقرة

مطينة وتحفزت للنضال ، فقلت :

ـــ إنها كارثة ، كارثة تماما بالنظر إلى أزمة المساكن ، ولكن زميلا فى الشركة لمح لى ، أجل ، حدثتك مرة عن الرقابة الإدارية ، ولا شك أن مستقبلك يهمك كما يهمنى .

قالت بضيق محتجة :

ـــ ولكن مضى على حياتنا المشتركة حوالى عام ونصف .

ـــ كانت أهنأ أيام حياتى ، وكان يمكن أن تمتد إلى الأبد دون أن يدرى بها أحد ..

وتظرت فى قعر الفنجال كأنما أقرأ البخت ثم واصلت قائلا :

ـــ ولكن سوء الحظ أدركنى ، سأرجع إلى شقة العازب المبعثرة ، وربما اضطررت إلى الاقامة فى فندق حقير أو بنسيون مزعج ..

نفخت بوحشية وقالت :

ـــ يوجد حل ، يوجد حل ، ولكنك خسيس ابن حرام !

ـــ أنا رجل صريح ، أحبك حقا ، وسأحبك حتى آخر يوم فى حياتى ، ولكنى قلت لك من أول يوم إن الله لم يخلقنى للزواج ..

ـــ لأنه خلقك ناقص المروءة ..

ـــ وإذن فلا داعى للرجوع إلى مناقشات لا خير فيها ..

تفرست فى عينى كأنما لتنفذ إلى أغوارها ، ثم قالت :

ـــ تريد أن تهجرنى ..

فبادرتها :

ـــ صفية ، أنا رجل صريح ، لو فى نيتى أن أهجرك لقلتها بصريح العبارة وذهبت ..

ران الكدر على روحها ووجهها ، وضاعف العبوس من دمامتها العابرة ، فتمنيت أن تعافنى وتكرهنى ليذهب كل منا إلى حال سبيله .

وقلت لنفسى إنه عند الحساب ستتعادل كفتانا . كانت حياتنا مشتركة بكل معنى الكلمة عدا المجاملات التى كانت تنفحنى بها فى المناسبات والتى عجزت ـــ لظروفى الخاصة ـــ عن ردها . غيرى آخرون يستغلون عشيقاتهم استغلالا فاحشا . الحق أنى لم أعتد بذل النقود للنساء . وعلى أى حال فإنى أتوقع معركة ختامية ، وقد جربت ذلك أكثر من مرة . وقد عرفت الحب فى الكلية ولكنى جئت متأخرا فضاعت الفرصة . فرصة سعيدة كانت . جميلة وذات مستقبل وكريمة لطبيب تتدفق عليه أموال المرضى ، ولكن ما فائدة « لو » ؟.

ها هو قلبى يخفق مرة أخرى . أجل .. إنى أحب الفلاحة . مجرد شهوة كالتى ساقتنى إلى صفية فى الجنفواز .

* * *

ـــ أريد حجرة لإقامة طويلة .

تجلت نظرة ارتياح فى العينين الزرقاوين المستطلعتين، ثم تراخت مستندة إلى ظهر الكنبة تحت تمثال العذراء. فى لفتاتها رشاقة متخلفة عن ماض سعيد، وشعرها الذهبى المصبوغ يشى برغبة مزمنة فى التشبث بذلك الماضى. ساومتنى بصراحة تجارية مؤكدة الأسعار الخاصة بالصيف.

ـــ ولكن أأنت قادم جديد إلى الإسكندرية ؟

لم يكن سؤالا عارضا ولكنه حلقة من سلسلة استجواب طويل مفهوم . جاريتها لأوثق علاقتي بها فقدمت لها اعترافا بعملي وسني وبلدتي وحالتي الاجتماعية . في أثناء ذلك رجعت الفلاحة من مشوار خارجي ، رأتني فخفضت عينيها ، أدركت حقيقة الموقف بنظرة واحدة ، ومضت متعثرة في ارتباكها ، ولكن المدام لم تفطن بطبيعة الحال إلى ارتباكها ، ولا رأت تورد خديها . وعندما تقدمتني إلى الحجرة الخالية ـــ آخر حجرة خالية مطلة على الشارع ـــ كنا بمثابة صديقين ترجع صداقتهما إلى عهد غابر في الزمان .

* * *

تفقدت الحجرة بارتياح ثم جلست على المقعد الكبير مستبشرا . عرفت من مجلسي ـــ ودون سؤال ـــ اسم الفلاحة وهي تنادى . وما لبثت أن دخلت حجرتي حاملة الملاءات والأغطية لتعد السرير . مضيت أراقبها بسعادة متفحصا أجزاءها بعناية وشغف ، الشعر والقسمات والقامة . يا سيدي أبو العباس البنت جميلة ، جميلة لدرجة السحر ، وتملك شخصية أيضا . أرادت أن تختلس مني نظرة ولكن عيني كانتا لها بالمرصاد . وابتسمت قائلا :

ـــ أنا سعيد يا زهرة ..

استمرت في عملها كأنها لم تسمعني فقلت :

ـــ ربنا يطول عمرك فقد أرجعت إلى الريف الذي جئت منه ..

ابتسمت فقلت :

ـــ محسوبك سرحان البحيرى يا زهرة ..

فلم تملك أن سألت :

ـــ بحيرى ؟

ـــ من فرقاصة بالبحيرة ..

كتمت ضحكتها وهى تقول :

ـــ أنا من الزيادية ..

فهتفت بنشوة كأنما وحدة المحافظة معجزة قد وجدت لضمان سعادتى وحبى :

ـــ يا ربنا ..

وكانت انتهت من عملها فهمت بمغادرة الحجرة فرجوتها قائلا :

ـــ ابقى قليلا فلدى الكثير مما أود قوله .

ولكنها حركت رأسها بدلال برىء ثم ذهبت . سعدت بتنكرها لرجائى واعتددته معاملة « خاصة » لا يمكن أن تعامل بها « زبونا » مجردا . نعم إنها ثمرة ناضجة وما على إلا أن أقطفها ولكن جسمها برىء فيما يبدو ولا علم لى باستعداداتها . إنى أحبها ، ولا غنى لى عنها . وددت أن يضمنا مسكن واحد بعيدا عن هذا البنسيون الذى لا يخلو عادة من متطفلين ثقلاء .

* * *

على مائدة الإفطار تعرفت بعجوزين غريبين . أكبرهما حى ميت ،

مومياء ، ولكنه لا يخلو من مرح ، وهو — كما قيل — صحفى قديم . والآخر طلبة مرزوق ، ليس اسمه بالغريب على أذنى وإن كاد يمحى ، وهو ممن وضعوا تحت الحراسة ، ولا علم لى بما جاء به إلى هذا البنسيون . وقد أثار تطلعى من أول الأمر ، فكل شاذ مثير سواء كان مجرما أو مجنونا أو محكوما عليه أو موضوعا تحت الحراسة . إلى ذلك كله فقد كان من الطبقة التى علينا أن نرثها بطريقة ما . ها هو يخفى عينيه فى قدح الشاى ، متجنبا النظر نحوى ، عن حذر أو كبرياء . وتلاطمت فى نفسى — حياله — أحاسيس متباينة تتراوح ما بين الشماتة من ناحية والرثاء من ناحية أخرى ، غير أن إحساسا منها استقر فى وضوح وهو ذعرى الغريب من فكرة مصادرة الثروات ، كأنما أومن بأن من يقتل مرة يعتاد القتل !.

وأراد عامر وجدى أن يجاملنى فقال :

— يسرنى أنك من رجال الاقتصاد ، إن الدولة اليوم تعتمد أول ما تعتمد على الاقتصاديين والمهندسين ..

تذكرت على بكير فلم أهنأ بالثناء . وعاد العجوز يقول :

— على أيامنا كان جل اعتمادها على بلاغة البلغاء !

ضحكت هازئا متوهما أنى بذلك أجارى رأيه غير أنه استاء فيما بدا فأدركت أنه لم يكن ينتقد، ولكنه كان يؤرخ. وراح يقول مدافعا عن جيله:

— يا بنى . كان هدفنا إيقاظ الشعب ، والشعوب تستيقظ بالكلمات ، لا بالمهندسين ولا بالاقتصاديين !

وسرعان ما تراجعت قائلا فى اعتذار :

— لو لم يقم جيلكم بواجبه لما تحقق لجيلنا وجود !

وظل طلبة مرزوق ملازما الصمت .

* * *

قلبى يستبعد براءته وفتوته . مثل هذا الصباح المشرق . مثل زرقة البحر الصافية . مثل هذا الدفء المبارك . وحب الحياة يتردد مع أنفاسى ، يجرى مع ريقى ، ينعش روحى بفرح ونهم . عملت نهارا طيبا بالشركة ثم تناولت الغداء مع صفية فى مسكنى القديم . نظرت إلى ببصر فأسدلت على وجهى قناع الكآبة . شكوت إليها وحشة البنسيون وبرودته . حياة لا تحتمل يا عزيزتى ولذلك وصيت سمسارا بالبحث لى عن شقة .

وترددت ألفاظ مألوفة مثل خسيس وابن حرام ، ولما آن لنا أن نستريح بعد الغداء ساءلت نفسى متى أتحرر من السخرة ؟.

ولمحت زهرة وهى تحمل القهوة إلى حجرة عامر وجدى . دقت الساعة الكبيرة الخامسة مساء فطلبت قدحا من الشاى . جاءتنى منورة كالنرجسة . أو أغنية تتغنى بسواد الشعر وصفاء السمرة وشهد العين . لمست يدها وأنا أتناول القدح وهمست :

— من أجلك سجنت نفسى فى هذه الحجرة ..

قطبت لتدارى عواطفها ثم استدارت لتذهب فقلت لها قبل أن تختفى عن ناظرى :

— أحبك .. لا تنسى ذلك أبدا ..

ولكنها استجابت لمحادثتي عصر اليوم التالى . رغبت أن أعرف عنها أقصى ما يسعنى معرفته فسألتها :

ـــ ماذا جاء بك من الزيادية إلى هنا ؟

أجابت باللهجة الريفية الأليفة .

ـــ الرزق ..

وحدثتني عن أهلها ، وظروف هربها ، والتجائها أخيرا إلى المدام بوصفها عميلة أبيها . قلت بإشفاق :

ـــ ولكنها خواجاية .. والبنسيون كما تعلمين سوق !

قالت بثقة واعتزاز :

ـــ عرفت الحقل والسوق !

ليست بالغرة ولا بالهشة . ولكن هل آخذ القصة بحرفيتها . إن اللاتى يهربن من القرية إنما يهربن .. هه ؟! وقلت وأنا أرامقها مفتونا بها :

ـــ حدث ذلك كله لكي نلتقى هنا !

رمتنى بنظرة مستطلعة لا تخلو من ارتياب ولكنها ندية بالميل ، فقلت :

ـــ أحبك . هذا ما أود قوله ولا أمله يا زهرة ..

تمتمت :

ـــ كفاية !

لن أكف حتى أسمع مثلها من شفتيك ، حتى تطمئنى إلى حضنى ..

ـــ أهذا ما تفكر فيه ؟

ـــ لن يكون لشيء طعم حتى أناله ..

ذهبت بوجه صاف لا أثر فيه للكدر أو الغضب . هنأت نفسي على بلوغ المراد . ووجدتني أجتر حنيني القديم إلى الزواج ، إنه لحنين قديم ، وقد فاض من جديد كنبع يتفجر . أود من أعماقي يا زهرة لو لا .. أجل لو لا ، سحقا للبديهيات السخيفة القاتلة !

* * *

انضم إلينا شابان جديدان . حسني علام ومنصور باهي . تطلعت إلى التعرف بهما بغريزة لا تني عن الإكثار من المعارف والصحاب ، ودائما تنظر إلى الوجه الجديد بعين صياد . وحسني علام من أسرة قديمة بطنطا ، وجيه من الوجهاء ، ومالك لمائة فدان ، جميل الوجه قوى البنيان ، كما يتمنى أى واحد منا أن يكون . وأنا قد أكره فكرة طبقته ولكنى أفتن بأى شخص منها إذا ساقتني الظروف الممتازة إلى صحبته . ومن السهل تخيل الحياة التي يمارسها شاب مثله رغم تغير الأحوال ، فإن يكن بعد ذلك كريما كما ينبغي له فحدث عن الليالي الملاح بغير حساب .

أما منصور باهي فنوع آخر من الشبان . إذاعي بمحطة الإسكندرية وشقيق ضابط كبير من رجال الأمن . ذاك جميل ومفيد أيضا ولكنه يبدو ملتصقا بذاته فوق ما يتصور العقل.إنه تمثال دقيق جيد الصنع ذو ملامح بريئة لا يحظى بها عادة إلا طفل . أين يمكن العثور على مفتاحه أو الاهتداء إلى الدرب الضيق الوعر الموصل إلى قلبه . ما أكثر الذين يفدون من القرية سعيا وراء عمل ، وما أكثر المشكلات التي يتطلب حلها

الاستعانة بضابط كبير من رجال الأمن !

* * *

جذبتها من ساعدها بغتة . انتظرت حتى وضعت قدح الشاى على الترابيزة ثم جذبتها من ساعدها بغتة . اختل توازنها فتهاوت على بمجلسى على المقعد الكبير فاحتويتها بذراعى وقبلت خدها — المتاح لى من وجهها — قبلة خاطفة متوترة نهمة متعجلة . اعترضت ساعدى بيدين قويتين ثم تملصت منى . انتصبت متراجعة مقطبة . نظرت نحوها فى حذر وتوقع ثم ابتسمت مستعطفا . تجملت بالصبر فيما بدا . ثم راق وجهها وصفا كالبحر فى صباح خريف دميث . توسلت إليها بإشارة أن تقترب فلم تلب ولم تذهب . وثبت إليها محموما برغبة مجنونة فضممتها إلى صدرى بلا مقاومة تذكر ، لم التقت شفتانا فى قبلة طويلة نهمة . وهمست فى أذنها ورائحة شعرها الآدمية تملأ أنفى :

— تعالى إلىّ ليلا ..

تفرست فى وجهى قليلا ثم سألتنى :

— ماذا تريد ؟

— أريدك أنت يا زهرة ..

لاحظت نظرة جادة فى عينيها وهى تفكر ، فسألتها :

— ستأتين ؟

سألتنى بمرارة :

— ماذا تريد منى ؟



فاحتويتها بذراعي وقبلت خدها

أفقت قليلا من سكرتى وقلت بحذر :

ـــ نتحادث ونتبادل الحب !

ـــ لكننا نفعل ذلك الآن ..

ـــ فى عجلة وخوف يفسدان السرور !

ـــ لا أرتاح لأفكارك !

ـــ إنك تسيئين فهمى !

هزت رأسها كأنما تؤكد فهمها . وذهبت وهى تبتسم رغم ذلك .

داخلنى حزن وتعاسة . جعلت أقول متحسرا : لو كانت من أسرة .. لو كانت على علم أو مال !. وانهمر من لسانى سيل من اللعنات ..

* * *

وكانت ليلة أم كلثوم .

نازعنى المزاج إلى قضائها فى بيت على بكير لنتلقى السماع فى جو هادئ جدير به ، كما دعانى رأفت أمين إلى السماع فى مسكنه ، ولكنى فضلت ـــ بعد تفكير ـــ السهرة فى أسرة البنسيون لأوثق علاقاتى بأفرادها . رأيت صينية كبيرة مليئة بالشواء فتعجلت الشراب لأتزود بالشجاعة الضرورية للهجوم . وهيمن علينا جو أسطورى فأنشدت أسطورة عن « آل البحيرى » ومركز وكيل الحسابات ، لا على سبيل الفخر الكاذب وحده ـــ ولكن تمهيدا للطريق أمام الثروة المنتظرة من

مغامرة على بكير . وانقض علينا حديث السياسة كالقضاء المحتوم . أما سمعتهم ؟.. ما قولكم ؟.. أتريدون رأيى صراحة ؟. أدركت بالغريزة أننى ممثل الثورة ، مع احتمال مشاركة منصور فى ذلك . وانهال الثناء وتبادلنا الأنخاب . ولمحت زهرة فقلت لنفسى إنها ممثلة الثورة الأولى ، وتذكرت كيف دعت لها أمامى مرة وكيف لفحنى صدق الدعاء وحماسه البرىء . ترى أيرتاب منصور باهى فى صدق ؟. يا صاحبى إنى بطبعى عدو أعداء الثورة ألا تفهم ؟. وإنى من الموعودين ببركاتها ألا تفهم ؟

* * *

لقد أغلقت من الأبواب بقدر ما فتحت ..

ـــ تذكر الملايين ثم احكم من جديد .

ـــ حسن ، وما رأيك فى المنعمين الجشعين ؟

ـــ رأيى أنهم أعداء للثورة فلا يحكم بهم عليها ..

* * *

وقد عشقت مدام ماريانا ، لا لأنها تحب غناءنا فحسب ولكن لخفة روحها ، ولأنها شريط مسجل يعيد ذكرياتها الخاصة بحنين يونانى عتيد . ومن خلال ذكرياتها رأيت لمحات من حياتى الخاصة ، كالحب القديم ، كحب الحياة الطيبة الناعمة . وهى ترجع فى الأصل إلى قوم مهاجرين ، والمهاجرون قوم وطنهم هو البلد الذى يوفر لهم السعادة .

وعامر وجدى أثر قديم اكتشفه منصور باهى . فترة جذابة من

تاريخنا الذى لا نكاد نعرف منه شيئا .

وعندما نوه طلبة مرزوق بمآثر الثورة لم أملك إلا أن أحيي — فى نفسى — نفاقه الممتع . واقتنعت بأن الإنسان رغم ابتكاراته وانتصاراته ما زال غارقا حتى أذنيه فى الحماقة والسخف . ولعله من المفيد أن نجمع الأعداء على فترات ليقضوا معا ليلا طويلا وهم يسكرون ويطربون ويملأون أنفسهم بأعذب الألحان .

* * *

— إذن فأنت لا تؤمن بوجود الجنة والنار ؟

— الجنة هى المكان الذى يتمتع فيه الإنسان بالأمن والكرامة ، أما النار فهى ما ليس كذلك ..

* * *

وعندما يضحك منصور لقفشاتى يتبدى كطفل رائع ، فراودنى أمل بأننى سأهتدى إلى الدرب الموصل إلى قلبه ، وبأن صداقة حارة ترصدنا فى نهاية السهرة . أما حسنى علام !، ليحيا حسنى علام، فقد قدم وحده للسهرة زجاجتين من الديوارس . تسلطن على مقعده كعمدة ، يملأ الكؤوس ويوزعها ، ويجلجل بضحكاته ، وعندما اختفى فجأة عقب منتصف الليل منيت الجلسة بخسارة فادحة .

ولم أستمتع بأم كلثوم كالعادة ، ولا رددت معها بعض المقاطع ، ولكن نشواتى تفاعلت كسيال كهربائى مع زهرة . عندما تجىء وعندما تذهب ، وهى جالسة عند البارفان تتفرج على عربدتنا بعين داهشة

باسمة . وبالنظرات المختلسة تعانقنا ، وتبادلنا القبلات والأشجان .

* * *

لا شك أننى رأيت هذا الرجل من قبل . كلا كان مقبلا على التريانون من ناحية شارع سعد وكنت مقبلا عليه من ناحية الميدان . سرعان ما عرفت طلبة مرزوق ! . رأيته لأول مرة بملابسه الكاملة متدثرا بمعطفه والكوفية مغطيا رأسه بطربوش غامق الحمرة . صافحته بإجلال ثم دعوته إلى فنجال قهوة . أذعن لإلحاحى فجلسنا معا إلى مائدة خلف الزجاج المغلق المطل على البحر . كان الهواء يلعب بسعف النخيل المحدق بتمثال سعد وفى السماء غيم رقيق تضىء الشمس أطرافه بلون ماسى . تبادلنا حديثا عاديا لا معنى له ولا طعم ، ولكن حرصت طيلة الوقت على احترامه ومجاملته والتودد إليه . شىء فى أعماق قال لى إنه لا يمكن أن يكون خالى الوفاض تماما . أجل هناك طريقة أو أخرى ، ولعله يود أن يستثمر ما لديه ولكن الخوف يكبله . وقلت تفريعا عن حديث المعيشة :

ـــ من العبث أن يعتمد شاب مثلى على مرتب وظيفته .

ـــ وما حيلته فى ذلك ؟

خفضت صوتى كأنما أودعه سرى وأنا أقول :

ـــ مشروع تجارى .. هذا ما أفكر فيه ..

ـــ ومن أين لك بالمال ؟

فقلت وأنا أدارى أفكارى بابتسامة بريئة :

ـــ أبيع بضعة أفدنة ثم أبحث عن شريك ..

ـــ ولكن هل يمكن أن تجمع بين الوظيفة والتجارة ؟

قلت ضاحكا :

ـــ على المشروع أن يبقى سرا من الأسرار .

تمنى لى التوفيق ثم بسط الجريدة ليلقي عليها نظرة . كأنما قد نسى الموضوع تماما . جائز أن يكون صادقا ، ومحتمل أن تكون مناورة ، ولكن أدركتني إحساس باليأس منه .

وأشار إلى عنوان أحمر عن ألمانيا الشرقية وقال :

ـــ ولا شك أنك سمعت بعض ما يقال عن بؤس تلك المنطقة ، وبخاصة إذا قورنت بالمنطقة الغربية ..

ها هو يتحدث فى السياسة الداخلية بلغة السياسة الخارجية . أجبته موافقا فعاد يقول :

ـــ ليس لدى روسيا ما تقدمه إلى بلد يدور فى فلكها ، أما أمريكا ..

ـــ ولكن روسيا قدمت لنا بالفعل مساعدات قيمة !

فقال بعجلة :

ـــ الوضع مختلف ، نحن لا ندور فى فلكها ..

وبدا حذرا حتى ندمت على اعتراضى . وراح يقول :

ـــ الحق أنهما ـــ روسيا وأمريكا ـــ سيان فى رغبة التسلط على العالم ، لذلك فموقف عدم الانحياز الذى اعتنقناه حكمة وأى حكمة ..

أسفت على أنه أفلت من يدى ، وأنه لا سبيل إلى استرداد الأرض

المفقودة قريبا . وقلت :

— الحق أنه لولا ثورة يوليو لاجتاحت البلد ثورة دموية لا تبقى ولا تذر !

فوافقني بطربوشه وهو يقول :

— الله كبير ، وقد أنقذنا بحكمته !

* * *

أين كنت ؟. لم تشرفنا منذ ثلاثة أيام . كيف تذكرتني أخيرا ؟. لماذا تعود إلى الأشياء القديمة الموضوعة على الرف ؟. ألم أقل لك إنك خسيس وابن حرام ؟. لا توجع رأسي بالأعذار السخيفة . لا تحدثني عن عملك الخطير بالشركة . لو كان لوزير رفيقة لما أهملها كما تهملني . جعلت أبتسم وأصب النبيذ في كوبين وباطني يضيق بها لحد التقزز . ها هي تلعب معي دور الطاغية فلا بد من التخلص منها . يجب أن أتحرر منها إلى الأبد . ولكن انجابت هموم الأرض عن صدري ، انجابت جميعا بمقدم زهرة حاملة الشاى إلى . تعانقنا طويلا . قبلت شفتيها وخديها وجبينها وعنقها . استمتعت بشفتيها بوعي مركز وهي تطبع شفتيها على شفتي . ثم أبتعدت قيراطين عنى وهي تتنهد وتقول هامسة متشكية :

— يخيل إلىّ أحيانا أنهم يعرفون ..

فقلت باستهانة ممسوس بنشوة الحب :

— لا يهمك ..

— أنت لا يهمك شيء ولكن ..

— يهمنى شىء واحد يا زهرة ..

ورنوت إليها مليا لأترجم لها ما أعنيه بعينى ثم قلت برغبة صادقة :

— لنعش معا بعيدا عن هنا !

فتساءلت بارتياب :

— أين ؟

— فى مسكن خاص بنا ..

لاذت بصمت متلهف على مزيد من القول ، ولما لم تلق منى ما يشبع لهفتها غامت عيناها بخيبة أمل ، وتساءلت :

— عم تتحدث ؟

— إنك تحبيننى كما أحبك ...

قالت بصوت خافت :

— أنا أحبك ولكنك لا تحبنى ..

— زهرة !

— إنك تنظر إلىّ من فوق كالآخرين ..

قلت بصدق كامل :

— إنى أحبك يا زهرة ، من كل قلبى أحبك والله شهيد .

فكرت قليلا بكدر ثم ساءلتنى :

— أتعتبرنى إنسانة مثلك ؟

— وهل فى ذلك من شك ؟

هزت رأسها نفيا . أدركت بطبيعة الحال ما يدور بخلدها فقلت :

ــ توجد مشاكل لا حل لها ..

واصلت هز رأسها مقطبة هذه المرة عن غضب وقالت :

ــ واجهتني مشاكل كذلك وأنا فى القرية ولكنني لم أخضع لها ..

لم أتصور أنها معتزة بنفسها لذاك الحد . شعرت بأن الحب يجرفنى معه إلى الهاوية فغرزت قدمى فى الحافة راميا بثقلى إلى الوراء . تناولت يدها بين يدى ، قبلت ظهرها وبطنها ، وهمست فى أذنها :

ــ أحبك يا زهرة ..

* * *

كلما نظرت إلى وجه حسنى علام القوى الجميل حلمت بالليالى الملاح . ولكنى علمت ذات يوم بالمشروع الذى جاء الإسكندرية من أجل دراسته وتنفيذه فتغيرت نظرتى إليه . طلبة مرزوق وهم مناقض للواقع ومن المستحسن أن أسقطه من الحساب أما حسنى علام فرجل قد عقد العزم على العمل ، وعلى أن أجد لنفسى دورا فى ذلك المشروع . ليس الأمر مجرد عمل ونجاح ولكنه قد ينقذنى فى اللحظة الأخيرة من أفكار على بكير الجهنمية . المؤسف حقا أن حسنى علام مثل الزئبق لا يسهل القبض عليه . إنه يتحدث أحيانا عن المشروع ولكنه يهيم على وجهه طيلة الوقت دافعا بسيارته فى سرعة جنونية ولا يخلو المقعد جنبه من امرأة . قلت له مرة :

ــ الرجل العملى لا يضيع وقته فى اللهو .

فضحك وسألنى :

— كيف يضيعه إذن ؟

فقلت بلهجة من يغير على مصلحته :

— يدرس ويفكر ثم ينفذ .

— جميل ما تقول ، ولكنى لا يحلو لى الدرس والتفكير إلا وأنا ألهو !

ثم وهو يقهقه :

— نحن نعيش الأيام التى تسبق مباشرة يوم القيامة !

تركته وأنا أحدث نفسى قائلا : « يا ربى .. أريد أن أفيد وأن أستفيد فما عسى أن أصنع ؟ ».

* * *

تطايرت الشتائم بيننا كالأحجار أو كالشظايا . وصحت غاضبا :

— كل مرة !.. هو حساب الملكين ؟!

وتطايرت الشتائم بيننا . وقد ذهل محمود أبو العباس الذى صحبنى إلى بيتها ليأخذ درسه الثالث فى الحساب ومسك الدفاتر . وقمت مصمما على الذهاب فمضى الرجل معى . وعند باب العمارة رجوته أن يرجع فيعلنها بأننى قررت الذهاب بغير رجعة .

ومضيت إلى ميرامار ولكننى لم أدرك أننى مطارد إلا وزهرة تفتح لى الباب . عند ذاك شعرت بيد تقبض على قفاى وصوت صفية يزعق :

— تريد أن تهجرنى ؟.. تظننى طفلة أو لعبة ؟!

تخلصت منها بجهد ولكنها كانت قد اقتحمت الشقة . قلت لها هامسا ولاهثا :

— اذهبى .. الناس نيام !

فصرخت بصوت غليظ :

— تنهبنى وتهرب !.. أكلتك وشربتك وكسوتك وتريد أن تهرب يا بن الحرام !

لطمتها فلطمتنى . اشتبكنا فى صراع مرير . حاولت زهرة التخليص بيننا فلم تفلح فقالت لها :

— من فضلك .. هذا بيت محترم ..

ولما لم يجد القول صاحت بها :

— اذهبى وإلا استدعيت البوليس !

تراجعت خطوة وهى تلتفت نحو زهرة . دهشت لمنظرها .

رددت عينيها بينى وبينها ، ثم هتفت بها بعجرفة :

— أنت يا خدامة كيف ..

قبل أن تكمل عبارتها كانت يد زهرة قد صكت فاها . انقضت على زهرة فانهالت عليها لكمات الفتاة القوية حتى انهارت أو كادت . واستيقظ البنسيون ففتحت الأبواب ودبت الأقدام ، وإذا بحسنى علام يسبقهم إلينا فيأخذ صفية من يدها ويذهب بها خارجا .

ذهبت إلى حجرتى أعمى من الغضب . لحقت بى المدام وهى تتساء عما جرى فى انزعاج . أعلنت لها أسفى ولكنها سألتنى :

— من هى ؟

قلت مختلقا كذبة إنقاذا للموقف :

ـــ كانت خطيبتى ثم فسخت خطبتها !

قالت وهى تهز رأسها :

ـــ إن سلوكها يثبت أنك كنت على حق فى معاملتها ولكن ..

وسكتت لحظات ثم استأنفت قائلة :

ـــ ولكن أرجو أن تسوى حسابك معها بعيدا عن هنا !

ثم قالت وهى تغادر البنسيون :

ـــ إنى أعيش بفضل سمعتي الطيبة !

ولما جاءت زهرة فى موعدها كان وجهها ما يزال منطبعا بآثار الحادث ، وقد شكرتها ، واعتذرت لها عما أصابها . تبادلنا نظرات عميقة أليمة حتى اضطررت أن أقول لها :

ـــ لقد هجرتها من أجلك ..

سألتنى بخشونة :

ـــ من هى ؟

ـــ امرأة ساقطة ، من الماضى ، اضطررت إلى أن أكذب على المدام فأقول لها إنها كانت خطيبتى !

لثمت خدها فى امتنان وأسف ..

* * *

صوت الريح ينطلق فى الخارج كرعد متصل ، جو الحجرة يقطر عصارة المساء رغم أن النهار لم يشارف الأصيل بعد ، فتخيلت الغيوم

المتراكمة فى السماء وتخيلت جبال الأمواج . ولما جاءت زهرة — ولم أكن رأيتها منذ لقاء أمس — أضاءت المصباح . كنت أعانى انتظارها طيلة الوقت فبادرتها بحرارة ورجاء :

— لنذهب يا زهرة !

وضعت القدح على الترابيزة وهى ترمقنى بعتاب مر فقلت :

— سنعيش معا إلى الأبد ، إلى الأبد ..

سألتنى متهكمة :

— ولا توجد مشاكل فى تلك الحال ؟

أجبت بصراحة مؤسفة :

— المشاكل التى أعنيها إنما يخلقها الزواج !

تمتمت بغضب مكتوم :

— يجب أن أندم على حبى لك ..

فقلت بحرارة وصدق وإخلاص :

— لا تقولى ذلك يا زهرة ، عليك أن تفهمينى ، أنا أحبك ؛ ومن غير حبك فلا معنى للحياة ولا طعم ، ولكن الزواج سيخلق لى مشاكل من ناحية الأسرة ومن ناحية العمل ، إنه يهدد مستقبلى فضلا عن أنه سيهدد حياتنا المشتركة ، فما العمل ؟

قالت بغضب أشد من الأول :

— لم أكن أعرف أننى يمكن أن أخلق جميع تلك المصائب :

— ليس أنت، لكنه الغباء، الحواجز الصلبة، الحقائق العفنة، ما العمل؟

ضيقت عينيها بحنق وقالت :

— ما العمل حقا ؟.. أن تجعل منى امرأة مثل امرأة أمس !

هتفت بيأس :

— زهرة .. لو كنت تحبينني كما أحبك لفهمتني بوضوح لا لبس فيه !

فقالت بحدة :

— إنى أحبك ، خطأ لا حيلة لى فيه .

— الحب أقوى من كل شيء ، من كل شيء ..

فاعترضت ساخرة :

— لكنه ليس أقوى من المشاكل !

تبادلنا نظرات صامتة . أنا محموم يائس وهى عنيدة غاضبة . ولولا قوة إرادتى ، أو لولا خوفى لانهرت تماما . وفكرت بسرعة أشد من البرق ثم قلت :

— زهرة ، توجد طرق وسطى ، مثل الزواج الإسلامى الأصلى !

حل التساؤل فى عينيها محل الغضب فقلت وأنا لا أعرف عن الموضوع أكثر من ذكريات غامضة :

— نتزوج كما كان يتزوج المسلمون الأوائل ..

— كيف كانوا يتزوجون ؟

— أعلن بينى وبينك أننى أقبلك زوجة على سنة الله ورسوله !

— بلا شهود ؟

ــ أمام الله وحده !

فقالت محتجة فى استياء :

ــ جميع من حولنا يتصرفون وكأنهم لا يؤمنون بأن الله موجود !

ثم هزت رأسها وقالت بإصرار :

ــ لا ..

* * *

هى عنيدة كالصلب . ليست رحلة سهلة كما حلمت . ويئست من إقناعها تماما . إنى على استعداد ــ إذا وافقت ــ أن أعاشرها إلى الأبد مضحيا بالزواج وآمالى المعقودة عليه . وفكرت أن أهجر البنسيون كخطوة أولى للنسيان ولكن حبها بقى عنيدا ــ مثلها ــ ومتشبثا بقلبى . ولم تقع بيننا جفوة . كانت تجيئنى بالشاى فى وقته ولا تصدنى إذا قبلتها أو ضممتها إلى صدرى . وقد أذهلنى أن أراها ــ فى المدخل ــ مكبة على كتاب المطالعة لتلاميذ السنة الأولى الابتدائية . ثبتت عيناى عليها غير مصدقتين . وكانت المدام جالسة تحت العذراء كما كان عامر وجدى مستسلما للفوتيل ، فقالت لى المدام باسمة :

ــ انظر إلى التلميذة يا مسيو سرحان !

وألقت عليها نظرة تشجيع وهى تقول :

ــ اتفقت مع جارتنا المدرسة .. ما رأيك ؟

إنه لحدث . أوشكت لحظة على الضحك ولكن سرعان ما أخذت به فقلت بحماس :

ــ برافوا !.. برافو زهرة !

وكان العجوز يرمقني بعينيه الغائمتين فداخلني منه خوف لا أدريه فغادرت البنسيون . بلغ بى التأثر مبلغا هز أعماق . وصوت باطنى قال لى إننى إذا استهنت بحب الفتاة فإن الله لن يبارك لى قط . ولكننى لم أهادن فكرة الزواج المرعبة . الحب عاطفة يمكن معالجتها على نحو أو آخر . أما الزواج فهو مؤسسة ، شركة كالشركة التى أعمل وكيلا لحساباتها ، له لوائح ومؤهلات وإجراءات . إذا لم يرفعنى من ناحية الأسرة درجة فما جدواه ؟. إذا لم تكن العروس موظفة على الأقل فكيف أفتح بيتا جديدا يستحق هذا الاسم فى زماننا المتوحش العسير ؟! أما مرجع تعاستى فهو أننى أحب فتاة غير مستوفية لشروط الزواج . ولو قبلت حبى بلا قيد لضحيت فى سبيلها بالزواج الذى أحن إليه منذ البلوغ !

ــ همتك عالية يا زهرة !

قلت لها ذلك وأنا أرمقها بإعجاب ، ثم قلت بأسف :

ــ ولكنك ترهقين نفسك وتبددين أجرك !

قالت بكبرياء وهى واقفة أمامى تفصل بيننا الترابيزة :

ــ لن أبقى جاهلة !

ــ وما فائدة العلم ؟

ــ سأتعلم بعد ذلك مهنة فلن أبقى خادمة ..

عض الألم قلبى وعقل لسانى ، أما هى فقالت بنبرة جديدة :

— جاء أهلى اليوم ليقنعونى بالرجوع إلى القرية !

رفعت إليها عينى مستطلعا وأنا أدارى قلقى بابتسامة فتجاهلتنى خافضة جفنيها .

— وماذا كان جوابك ؟

— اتفقنا على الرجوع فى أوائل الشهر القادم !

قلت بجزع :

— حقا !.. ترجعين إلى العجوز ؟!

— كلا ، لقد تزوج !

ثم بصوت خافت :

— تقدم لى رجل غيره .

قبضت على يدها بشدة وتوسلت قائلا :

— لنذهب معا ، غدا ، اليوم إن شئت ..

— اتفقنا على الرجوع أول الشهر ..

— زهرة هل قد قلبك من حديد ؟

— إنه حل بلا مشاكل !

— ولكنك تحبيننى يا زهرة !

فقالت بامتعاض :

— الحب شيء والزواج شيء آخر ، أنت علمتنى ذلك .

عند ذاك خانتها شفتاها فوشتا بابتسامة خفيفة فهتفت :

— يا لك من شيطانة يا زهرة !

وغمرنى فيض من الارتياح والفرح . ودخلت الحجرة عند ذاك المدام وهى تحتسى الشاى من قدح فى يدها . جلست على حافة الفراش وهى تقص على قصة أهل زهرة وكيف رفضت الفتاة العودة . وتساءلتُ بمكر كاذب :

— ألم يكن من الأفضل أن ترجع إلى أهلها ؟

فابتسمت المدام ابتسامة قوادة عالمة ببواطن الأمور ثم قالت :

— أهلها الحقيقيون هنا يا مسيو سرحان !

تجنبت النظر إلى عينيها . تجاهلت مغزى قولها تماما . ولكننى خمنت أن الفراشة تطير بالأنباء من حجرة إلى حجرةٌ . ولعل سوء ظنها قد جاوز الحدود . ووجدتنى فى النهاية سعيدا بنصر وهمى أما فى الواقع فإن العناد الذى سد فى وجهى باب الأمل لم يلن لحظة واحدة . وساءلت نفسى متى أجد الشجاعة لأهجر البنسيون نهائيا ؟!

* * *

بدا المنظر مألوفا وفاترا إلى حد ما . المدام تجلس لصق الراديو تكاد تطرح رأسها وهى تتابع أغنية أفرنجية . أما عامر وجدى فقد راح يسمّع لزهرة بعض الكلمات . ودق الجرس فإذا بالقادمة مدرسة زهرة . معذرة .. الشقة مزدحمة بالضيوف ، فإذا سمحتم أعطيت الدرس هنا . كرم منها بلا ريب . واستقبلناها بترحاب وأدب . وهى وسيمة وأنيقة وموظفة . راقبتها وهى تدرس لزهرة ، وجدتنى منساقا للمقارنة بينهما بتأمل وأسى . هنا الفطرة والجمال والنقر والجهل وهناك الثقافة والأناقة



فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر

والوظيفة . آه لو تحل شخصية زهرة فى بيئة الأخرى وإمكانياتها . وتطفلت المدام على الدرس لتشبع حب استطلاعها الأبدى فعرفنا الاسم والأسرة وحتى الأخ المنتدب للعمل فى السعودية . وإذا بى أسألها :

— أمن الممكن أن يرسل لنا بعض البضائع النادرة من هناك ؟

فأجابت فى تحفظ بأنها ستسأل عن أمكان ذلك .

وغادرت البنسيون إلى كافية دى لا بيه لمقابلة المهندس على بكير . نظر إلى بثقة وقال :

— كل خطوة ترسم بدقة ، والنتائج مضمونة !

حسن ، فلنثب وثبة موفقة تجعل من زيارتنا للدنيا رحلة لها معناها وقيمتها . ثم سألنى على بكير :

— قابلت صفية بركات فى ديليس فهل حقا ..؟

قلت بامتعاض :

— عليها اللعنة !

ضحك وهو ينظر فى عينى باهتمام ثم عاد يسألنى :

— ولكن هل هجرتها حقيقة من أجل ..؟

— لا تصدقها من فضلك ، متى كانت ممن يعتمد الإنسان على صدقهن ؟!

فازداد اهتماما وتفكيرا وهو يقول :

— إن سرنا من الأسرار التى يضن بها حتى على الزوجة والابن !

فهتفت به مؤنبا :

ـــ الله يسامحك !

* * *

قلت لنفسى يا للعجب . إنها نظرة يطيب بها غرور الرجل . لم تلح فيها ابتسامة ولا رعش هدب ، ولكنها ـــ المدرسة ـــ حولت رأسها بغتة عن زهرة وكتابها ورشقتنى بها . لم تدم أكثر من ثوان . هربتها إلى فى غفلة من زهرة وعامر وجدى . لم تدم أكثر من ثوان . وقد أتلقى عشرات مثلها فلا تهزنى شعرة وأعتدها نظرة عابرة ، غير أنها عكست ومضة معبرة لا توصف وكأنما أبلغتنى رسالة كاملة . غيرت خط سيرى فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر . تدبير بلا هدف ، وليس وراءه عاطفة ، ولكنه تطلع ـــ من فراغ ويأس ـــ إلى مغامرة ، أية مغامرة . ولم تكن بالمثال الذى يمكن أن يفتننى ولا حتى يثيرنى ولكنها ـــ فيما بدا ـــ دعتنى إلى نزهة فى يوم عطلة شديد الملالة .

وإذا بها تمر أمام المقهى واضعة يديها فى جيبى معطفها الرمادى . تبعتها عن بعد حتى لحقت بها فى أثنيوس . ابتاعت بعض الحلوى ووقفت كالمترددة فاقتربت منها وحييتها . ردت التحية فدعوتها إلى قدح شاى فقالت لى إنها كانت تفكر فى الجلوس بعض الوقت . احتسينا الشاى وتناولنا قطعتين من الجاتوه ، ثم دار حديث تعارف سطحى ولكن لا يخلو من معلومات مفيدة عن الأسرة والعمل . وسياق الحديث وحده هو الذى جعلنى أطالب بموعد قريب . وتقابلنا فى بوفيه سينما أمير ، ثم

شهدنا الفيلم معا ، وكان على أن أحدد نوع المغامرة ولونها ، ولم أجدها بالقياس إلى قلبى جديرة بالمثابرة والتعب ، ورغم ذلك فعندما دعتنى إلى زيارة أسرتها قبلت !. أدركت أنها تبحث عن زوج . وزنتها بعقل بارد ، قدرت المرتب والدروس الخصوصية وتذكرت فى ذات الوقت يأسى المتزايد من زهرة ، وفى أسرتها عثرت على إغراء جديد وهى ملكية والديها لعمارة متوسطة بكرموز . وجدتنى أفكر فى الأمر بجدية لا طمعا فى مالها ولا حبا فيها ولكن انسياقا لحنينى القديم إلى الزواج . وزهرة ؟!. قد أجد شيئا من عزاء عن غدرى بها فى الزواج نفسه الذى سيربطنى إلى الأبد بامرأة لا أحبها ، ولكن هل أستطيع حقا أن أقهر الحب المشبوب فى قلبى ؟!

* * *

أشار إلى راجيا أن أنتظر . كنت هممت بالانصراف بعد شراء الجريدة وكان يحاسب زبونا ، فلما فرغ منه أقبل علىّ وهو يقول :

ـــ أستاذ .. سأخطب زهرة !

داريت انزعاجى بابتسامة وسألته :

ـــ مبارك ، هل تم الاتفاق بينكما ؟

أجاب منتفخا بالثقة :

ـــ تقريبا !

نبض قلبى بألم أليم وأنا أسأله :

— ماذا تعنى بقولك « تقريبا » ؟

— هى زبونة يومية ، لم نطرق الموضوع صراحة . ولكنى خير من يفهم النسوان !

كرهته فى تلك اللحظة لحد الموت ، أما هو فسألنى :

— ما رأيك يا أستاذ فى أخلاقها ؟

— طيبة جدا والحق يقال .

سأخطبها من مدام ماريانا حتى أهتدى إلى أهلها .

تمنيت له التوفيق ثم ذهبت ولكنه لحق بى بعد خطوتين وهو يسأل :

— ماذا تعرف عن الخلاف بينها وبين أهلها ؟

— كيف علمت به ؟

— أنبأنى به عامر بك ، العجوز ..

— جملة ما أعرفه أنها عنيدة وأبية النفس .

فضحك وهو يقول فى مباهاة :

— إنى أعرف الدواء لكل داء ..

* * *

كانت خطبة .. وكان رفض .

وبقدر ما أرضانى ذلك بقدر ما ضاعف من إحساسى بالمسئولية . مزقنى القلق ، اجتاحنى الحب ، تراجعت علية من مقدم الصورة حتى لاحت خلفية باهتة .

وقبضت على معصمى زهرة بحنان وضراعة وقلت بحرارة وتوسل :

ـ أنقذيني .. ولنذهب فى الحال !

تخلصت مني بجفاء وهي تقول :

ـ لا تعد إلى ذلك ، إنى أكره سماعه !

لن نتلاقى أبدا . هي تحبني ولكنها ترفض التسليم بلا قيد ، وأنا أحبها ولكني أرفض القيد . ولا هذا ولا ذاك بالحب الحقيقى الذى تمحى عنده الإرادة والعقل .

وقد دعانى السيد محمد والد علية للغداء فلبيت الدعوة . ودعوت الأسرة فى نهاية الأسبوع للعشاء فى باستوريدس . انقلب الجو بعد أن استقر بنا المجلس فصفرت الريح وانهمر المطر . ومضيت أقنع نفسى طوال الوقت بأن علية فتاة ممتازة وأنها تعد بزواج موفق . وسيمة .. أنيقة جدا .. موظفة .. مثقفة .. ماذا تريد أفضل من ذلك ؟. ولو لم أرق فى عينيها ..، مالى أتحفظ لهذا الحد ؟، إنها تحبنى بلا ريب ، الراغبة فى الزواج راغبة فى الحب أيضا . ثم ما هذا الذى يعدنا بالفراديس دون أن يفى ولو بشىء من وعده ؟. واشتدت العاصفة فى الخارج حتى خيل إلى أنها ستقلع المدينة الجميلة من جذورها فتضاعف شعورنا بنعمة الدفء والأمان فى الداخل . وقلت لنفسى إننى اقتحمت أبواب هذه الأسرة المحترمة مدفوعا بانفعالات عفوية ولكن بلا خطة موضوعة أو نية صادقة ، وبلا إمكانية مالية مناسبة ، وأن على أن أصارحهم بحقيقة مركزى وبمسئوليتى العائلية تاركا لهم بعد ذلك الخيار . وقد جر الحديث المتشعب إلى « الزواج » كموضوع عام فقال والد علية :

ـ على أيامنا كنا نتزوج مبكرين فنهنأ برؤية أولادنا وهم رجال مسئولون !

فحركت رأسي حركة تنم عن الحسرة وأنا أقول :

ـ تلك أيام خلت ، أما هذه الأيام فهي منحوتة من العسر والصخر ..

فمال نحوي قليلا ثم قال بصوت كالهمس :

ـ ابن الحلال ثروة في ذاته ، وعلى الأمناء من الناس أن يذللوا له العقبات ..

* * *

يا له من وجه مكفهر . كان قد انتبه إلى اقترابي من معرضه وأنا على بعد خطوتين منه فسرعان ما اكفهر وجه . رماني بنظرات غاضبة حتى عجبت لشأنه . ثم تساءل متهكما دون أن يقدم لي الجريدة كعادته كل يوم :

ـ لم أخفيت عني أنك عشقتها ؟

بوغت بقوله ، ولهجته الوقحة ، وهتفت به :

ـ أنت مجنون !

فصاح بي :

ـ أنت جبان !

فقدت صوابي فلطمت وجهه بظهر كفي . وإذا به يهوى براحته الكبيرة على خدي . وتبادلنا الضرب بلا وعي ولا رحمة حتى فرق

الواقفون بيننا . انفصلنا ونحن نتبادل أقذع الشتائم . وسرت وقتا على غير هدى وأنا أسائل نفسي عمن وضع تلك الفكرة الخبيثة فى رأسه الخاوى .

وقد مضى زمن طويل قبل أن أراه مرة أخرى . دخلت آنذاك لأتناول عشاء خفيفا فى مطعم بانيوتى فوجدته جالسا فى مقعد صاحب المحل وراء صندوق الماركات . هممت بالتراجع فوثب من مجلسه إلىّ ثم احتوانى بين ذراعيه وهو يقبل رأسى ، وأبى إلا أن يدعونى للعشاء على حسابه !. واعتذر إلىّ عما سلف ثم اعترف لى بأن حسنى علام هو الذى افترى على تلك الكذبة !

* * *

ـــ عزيزتى .. أرجو ألا تعلم زهرة بما بيننا !

كنا نجلس على شاطئ المحمودية بكازينو البالما تحت الشعاع الدافئ . وكان اتصالها المنتظم بزهرة يقلق خيالى . إنها لا تدرى شيئا عن الأسباب الحقيقية التى ساقت زهرة إلى التلمذ عليها ، كما أن زهرة لا تتصور أن مدرستها قررت الاستيلاء على رجلها . وقد رمقتنى عليه بارتياب وهى تسأل :

ـــ لم ؟

ـــ إنها ثرثارة !.. والثرثرة غير مستحبة فى اللحظة الراهنة من علاقتنا ..

لم تزايل الريبة نظراتها وقالت :

ـــ ولكن علاقتنا ستعرف عاجلا أو آجلا ..

فقلت بصراحة فجة :

ـــ يخيل إلى أحيانا أنها تنظر إلى نظرة خاصة ..

قالت وهى تبتسم ابتسامة شاحبة فاترة :

ـــ لعل لديها من الأسباب ..

فقلت بجدية :

ـــ جميع النزلاء يمازحونها أحيانا ، وقد فعلت مثلهم ، هذا كل ما هنالك ..

كانت العلاقة قد تطورت من ناحيتها إلى حب . ولم يكن يهمنى أن تصدقنى بالكامل بقدر ما يهمنى أن تأخذ حذرها من زهرة !. وإذن فقد انتصر العقل على القلب ولم يبق إلا أن أعلن الخطبة . على ذلك ترددت ، وجعلت أؤجل اليوم الموعود بحجة الرجوع إلى القرية ليلعب الأهل دورهم التقليدى . وكلما مر يوم توترت مشاعرى حيال زهرة وحزف نفسى غدرى المخزى بها . وكنت أتنهد بحسرة وأقول : آه لو تلين .. لو تذعن .. فأهبها قلبى إلى الأبد ..

* * *

رعد !.. زلزال ؟.. مظاهرة ؟.. سقوط جسم بالحجرة ؟!

أخرجت رأسى من تحت الغطاء إلى ظلام دامس . أنا هو أنا .. هذا فراشى ببنسيون ميرامار .. ولكن ما هذا ؟.. رباه .. إنه صوت زهرة .. إنه يطرق بابى .

هرعت إلى الخارج . رأيتها على ضوء المصباح السهرى مشتبكة مع حسنى علام فى صراع مميت . من نظرة واحدة أدركت حقيقة الموقف كله . أردت أن أنقذها بلا فضيحة ومع الإبقاء على علاقتى بحسنى وضعت يدى على كتفه برفق هامسا :

— حسنى !

لكنه لم يسمعنى فشددت على كتفه وأنا أقول بنبرة أقوى :

— حسنى .. أجننت ؟!

دفعنى بظهره بوحشية ولكنى قبضت على منكبه وقلت له بحزم :

— ادخل الحمام وضع إصبعك فى فمك !

وإذا به يستدير نحوى ويلطمنى على جبهتى . جننت من الغضب فانهلت عليه ضربا . ولم يقف الضرب بيننا حتى أدركتنا المدام . وقد عاملت المدام المعتدى برفق لا يستحقه . إنى أفهم العجوز جيدا . من خلال نفسى أفهمها حقا . كلانا حام حول حسنى ممنيا النفس بالاستفادة من مشروعه الخيالى . وهى مترددة تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، وأنا متحفز طيلة الوقت للوثوب . ها هو الباب يغلق فى وجهى نهائيا ، أما هى فتكاد تعنف المضروب من أجل خاطر الضارب .

وعقب ذلك بأيام رأيته — حسنى علام — خارجا من الجنفواز حوالى الواحدة صباحا مصطحبا معه صفية بركات . لم أدهش إلا قليلا ثم تذكرت يوم مضى بها من البنسيون . إنها تماثله فى التهور والحلم بالمشاريع ، وسيجمع بينهما الحب والأحلام . وكنت — تلك الليلة —

قد سهرت فى حانة جورج مع على بكير ورأفت أمين . وسرنا فى الكورنيش متشجعين بصفاء الجو وحرارة الخمر . ولا حديث لرأفت أمين — وبخاصة إذا سكر — إلا الوفد . وقد وضح لى أن على بكير لا يكاد يعرف الفارق بين الوفد والنادى الأهلى . من ناحية أخرى لم أكن أهتم فى أعماق بالسياسة رغم نشاطى الموفور فيها .

أما رأفت أمين فراح يتحدث بلسان مخمور عن الوفد وأيامه وسألته ساخرا :

— ألا تعترف بالموت ؟

فقال بصوت دوى فى الطريق الخالية :

— قل فى الثورة ما تشاء ، لا أنكر قوتها الشاملة ، ولكن الشعب مات بموت الوفد !

عند ذلك وقع بصرى على حسنى علام وصفية بركات وهما ينحدران إلى الكورنيش كدبّين قويين ، قلت ضاحكا وأنا أشير إليهما من بعيد :

— ها هو شعب الوفد يواصل جهاده بعد منتصف الليل !

وعندما آن لنا أن نفترق همس على بكير فى أذنى :

— عما قريب سنعطى إشارة البدء فى العمل .

* * *

دخلت البنسيون والنوم يخيم على أرجائه . وتراءى لى باب منصور باهى الزجاجى وهو ينضح بالضوء فاندفعت بسحر الخمر إلى

الاستئذان فالدخول ، بلا باعث حقيقى . نظر إلى بشىء من الدهشة وهو جالس على المقعد الكبير . تتجلى فى عينيه الصغيرتين الجميلتين كآبة وتفكير . قلت وأنا أتخذ مجلسا على كرسى قريب :

ـــ لا تؤاخذنى .. أنا سكران !

فقال دون مبالاة :

ـــ هذا واضح ..

ضحكت ، ثم قلت معاتبا :

ـــ الحق أنى عجزت عن جذبك إلى ، يبدو أنك شديد الانطواء !.

أجاب بأدب ولكن دون تشجيع ما :

ـــ لكل طبعه ..

ـــ لا شك أن رأسك يرهقك !

أجاب بغموض :

ـــ الرأس أصل البلاء !

فقلت ضاحكا :

ـــ طوبى لنا نحن أصحاب الرءوس الفارغة !

ـــ لا تبالغ فإنك مركز نشاط لا يخمد ..

ـــ حقا ؟.

ـــ نشاطك السياسى .. أفكارك الثورية .. غرامياتك !

صدمتنى العبارة الأخيرة من قوله ولكن ضاعت الصدمة فى مد الموجة الخمرية . ووضح لى أنه لا يرحب بى ـــ إنه لا يرحب بأحد ـــ

فصافحته ثم ذهبت .

* * *

عندما تجيء زهرة إلى حجرتى بالشاى أتخلى عن أفكارى ومشروعاتى ويتفرغ قلبى للحب الحقيقى وحده . ولكن وجهها تبدى صلبا متحجرا مصفرا من الغضب . ونظرتها الثابتة الكالحة المتحفزة المخيفة ملأت قلبى بالقلق والتشاؤم . قلت بإشفاق :

ـــ زهرة .. لست كعادتك !

قالت بحنق مفترس :

ـــ لولا أن الله حكمته التى هى فوق العقول لكفرت !

ماج صدرى بالقلق فسألتها :

ـــ هل من هم جديد يضاف إلى همومنا المستعصية ؟!

قالت باقتضاب وازدراء :

ـــ بعينى رأيتكما ..

عرفت من تعنى فغاص قلبى فى هاوية عميقة من صدرى وسألت بيأس :

ـــ من تعنين ؟

ـــ الأستاذة !

ثم بضراوة وحقد :

ـــ الخطافة الداعرة ..

ضحكت . يجب أن أضحك . وأن أضحك ضحكة الاستهانة التى

نواجه بها عادة غضبه خاطئة فى غير محلها . ضحكت وأنا أقول :

ـــ يا لك من .. صادفت أستاذتك فى طريقى فأديت لها ما ..

قاطعتنى بقسوة :

ـــ كذاب .. لم تكن مصادفة .. وقد عرفت ذلك منها اليوم !.

هتفت بانزعاج :

ـــ لا !.

ـــ اعترفت الخنزيرة بمقابلتك ، ولم يدهش أحد من والديها ، ولكنهم دهشوا جميعا لتطفلى أنا !

خرست ، خرست تماما ، وقالت هى بتقزز وغضب :

ـــ لمَ يخلق الله أمثالك من الجبناء ؟

انهزمت .. تهدمت .. ومن أعماق هاوية اليأس توسلت إليها قائلا :

ـــ زهرة !.. كل ذلك يقوم على غير أساس .. إن هو إلا تخبط يائس .. راجعى نفسك يا زهرة .. يجب أن نذهب معا .

لم تسمع كلمة مما قلت إذ واصلت كلامها قائلة :

ـــ ماذا أفعل ؟.. لا حق لى عليك .. وغد حقير .. غر فى ألف داهية !

وبصقت فى وجهى !

غضبت . رغم موقفى المخزى غضبت . ثم صحت بها :

ـــ زهرة !

فبصقت فى وجهى مرة أخرى . أعمانى الغضب فصرخت :

— اذهبى وإلا كسرت رأسك .

انقضت علىّ ولطمتنى على وجهى بقوة مذهلة . انتترت واقفا وقد جن جنونى . قبضت على يدها بقسوة ولكنها انتزعتها بعنف ولطمتنى للمرة الثانية . فقدت وعيى فانهلت عليها ضربا وصفعا وهى تبادلنى الضرب والصفع بقوة فاقت تصورى . وإذا بالمدام تهرول نحونا وهى ترطن بألف لسان . أبعدتها عنى فصحت فى جنون الغضب :

— أنا حر .. أتزوج بمن أشاء .. وسأتزوج علية !

وجاء منصور باهى فمضى بى إلى حجرته . لا أذكر أى حديث تبادلنا ولكنى أذكر تهجمه علىّ بوقاحة غريبة ، وكيف اشتبكنا فى صراع جديد . جاء موقفه مفاجأة لى وأى مفاجأة . لم يجر لى فى خاطر أنه أيضا من عشاق زهرة !. هكذا عرفت سر نفوره الغريب منى . ولحقت بنا المدام . قررت أن تجعل منى كبش الفداء ، العجوز القوادة . قالت إن البنسيون لم يعرف الهدوء منذ جئته ، وإننى قلبته إلى سوق همجية للمعارك وقلة الأدب . وبصراحة وقحة قالت لى متحدية :

— ابحث لك عن مسكن آخر !

لم يعد ثمة ما يدعونى للبقاء ، ولكنى أصررت على الإقامة حتى عصر الغد ، آخر الأسبوع الذى دفعت إيجاره مقدما ، وهو إصرار يرجع أولا إلى العناد والكبرياء .

وغادرت البنسيون فهمت على وجهى طويلا تحت سماء ملبدة

بالغيوم متعرضا لدفقات متواصلة من الهواء البارد . وجعلت أتسلى بمشاهدة معارض الحوانيت المتلألئة بهدايا السنة الجديدة وأنظر بفتور إلى بابا نويل العتيد !

وذهبت إلى بدرو لموعد سابق مع المهندس على بكير . وقد سألنى :

— هل دبرت مسألة الاستمارات ؟

فأجبته بالإيجاب فقال لى :

— فجر الغد ، سوف نبدأ مع فجر الغد .

* * *

قلت لنفسى وأنا ذاهب إلى الشركة فى الصباح الباكر « مضى الفجر .. وتمت اللعبة » .

كنت مضطربا ، ونهما إلى الأخبار . اتصلت بالمصنع تليفونيا طالبا على بكير فقيل لى إنه فى المرور . إذن فقد نفذ التدبير بإحكام ونجاح وها هو يزاول عمله اليومى . واجتاحنى الاضطراب فغادرت الشركة قبل الميعاد متعللا بعذر ما ولدى مرورى أمام دار الإذاعة لمحت منصور باهى وفتاة حسناء يغادرانها معا . ترى من تكون ؟.. خطيبة ؟.. عشيقة ؟. هل تجد زهرة نفسها على الرف مرة أخرى ؟. تذكرت زهرة بحزن . لم أبرأ تماما من حبها ، وهو العاطفة الصادقة الوحيدة التى خفق بها قلبى الممزق بالأهواء .

ومضيت لزيارة علية محمد وأسرتها فاستقبلت استقبالا فاترا ، بل متجهما . هممت بطرح بعض الأكاذيب كالعادة ولكن والدها قال لى

بغضب :

— تصور موقفنا وتلك الخادمة تناقشنا الحساب !

ولما جاء ميعاد الغداء لم أدع له . غادرت الشقة بلا أمل فى وصل ما انقطع من الأسباب . والحق أنى لم أكترث لذلك كثيرا . لم يعد يفصل بيني وبين الثراء إلا ساعات ، وسوف أجد الزوجة الفاخرة المناسبة .

تناولت الغداء عند بنايوتى (محمود أبو العباس) ثم ذهبت إلى مسكن على بكير ولكنى لم أجده . مضيت إلى البنسيون والنهم إلى الأخبار يحرقني حرقا . أعددت حقيبتي وحملتها إلى المدخل . وتلفنت إلى على بكير وكم غمرنى الارتياح الساحر وصوته يرد علّى قائلا : « آلو » .

— سرحان يقدم تحياته .. كيف الحال ؟

— كل شيء طيب .. لم أقابل السواق بعد !

— متى نعرف النتيجة النهائية ؟

— قابلنى مساء اليوم الساعة الثامنة بكازينو البجعة !

فقلت باستجابة متلهفة :

— طيب .. الساعة الثامنة مساء .. سأنتظرك فى كازينو البجعة ..

— إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

غادرت بنسيون ميرامار إلى بنسيون إيفا . تسكعت بين المقاهى أشرب كأسا هنا وكأسا هناك ، مبذرا نقودى بلا حساب . بالشراب

أسكت وساوس القلق وأنات الحب المحتضر . ووعدت أهلى بخير لم يحلموا به منذ وفاة أبى . وذهبت إلى كازينو البجعة قبل الموعد بقليل . التقيت عند المدخل بطلبة مرزوق فضايقنى جدا ولكنى صافحته متظاهرا بالارتياح . وقد سألنى :

ـــ ماذا جاء بك إلى هنا ؟

ـــ موعد هام ..

ـــ دعنى أرد إليك تحية من تحياتك فلنجلس معا حتى يجىء صاحبك .

جلسنا فى البهو الشتوى وهو يسألنى بصوته الأجوف من انتفاخ شدقيه :

ـــ كونياك ؟

كنت ثملا ولكن كانت لى رغبة فى المزيد . شربنا وتحادثنا وضحكنا . وإذا به يسألنى :

ـــ ترى هل يسمح لى بالسفر إلى الكويت لزيارة كريمتى ؟

ـــ أعتقد ذلك ، أتريد أن تبدأ من جديد ؟

ـــ كلا ولكن زوج كريمتى ـــ هو ابن أخى أيضا ـــ قد أثرى ثراء كبيرا .

ـــ لعلك تفكر فى الهجرة ؟

لاحت فى عينيه نظرة حذرة ثم قال :

ـــ كلا .. أريد فقط أن أرى ابنتى .

قربت رأسى منه وأنا أقول :

ـــ هل أدلك على عزاء حقيقى ؟

ـــ ما هو ؟.

ـــ البعض يضيقون بالثورة ، ولكن أى نظام يمكن أن يحل محلها ؟، فكر قليلا أو كثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين ، فإما الشيوعية وإما الإخوان ، فأيهما تفضل على الثورة ؟!.

قال بعجلة :

ـــ لا هذا ولا ذاك !

فقلت وأنا أبتسم فى ثقة وانتصار :

ـــ هذا هو يقينى ، فليكن لك فى ذلك عزاء .

وأزف الميعاد ولم يجيء على بكير. انتظرت نصف ساعة أخرى مرت فى عذاب أليم. قمت إلى التليفون وطلبت مسكنه فلم يرد أحد. لعله فى طريقه إلى هنا ولكن ماذا أخره؟. ألا يقدر ما يفعله التأخير بى؟. ونظر طلبة مرزوق فى ساعته ثم قال «آن لى أن أذهب» ثم صافحنى وذهب. ولم أكف عن الشراب. وأخيرا جاء الجرسون ليخبرنى بأن شخصا يطلبنى فى التليفون. وثبت واقفا ثم هرعت إلى التليفون. تناولت السماعة وقلبى يضرب بشدة:

ـــ آلو .. على ؟.. لم لم تجئ ؟

ـــ سرحان .. أصغ إلى .. انكشف الأمر !

تفاعلت كلماته مع وش الكحول فى أذنى وانداحت جميعا فى دوران شمل السماء والأرض :

— ماذا قلت ؟

— قضى علينا !

— ولكن كيف ؟.. قل ما عندك دفعة واحدة !

— ما الفائدة ؟.. أراد السواق أن يفوز بالغنيمة وحده فوقع فى شر عمله .. سيعترف بكل شىء .. إن لم يكن قد اعترف بالفعل ..

سألت بريق جاف :

— والعمل ؟.. ماذا أنت صانع ؟

— قضى علينا .. سأفعل ما يمليه علىّ الشيطان .

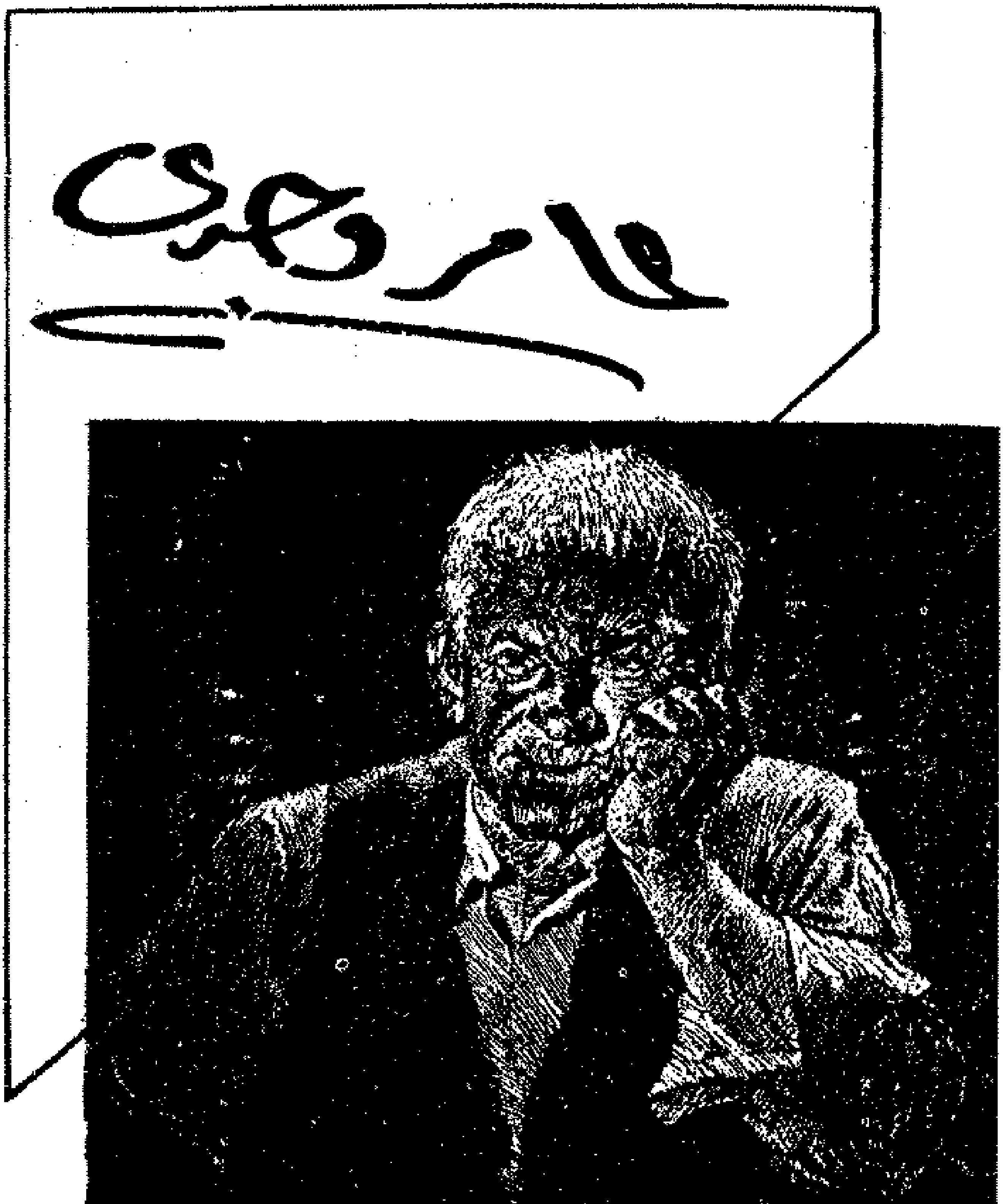
وأغلق السكة .

إنى أرتجف ولا تكاد تحملنى قدماى. فكرت لحظة فى الهرب ولكنى عدت — تحت عينى الجرسون — إلى المائدة. لم أجلس. شربت الكأس. أديت الحساب. اليأس يزحف بسرعة مذهلة. وخوف مثل الشيطان. فارقت موقفى إلى البار رأسا. بطريقة غير شعورية. طلبت من البارمان زجاجة واندفعت فى الشرب بلا وعى وهو يرمقنى بقلـق. أصب وأشرب ثم أصب. دون كلمة أو لفتة أو تريث. ثم رفعت رأسى إليه قائلا:

— موسى حلاقة من فضلك ؟

تردد قليلا، ولما قرأ الإصرار فى وجهى نادى الجرسون وسأله عن موسى. رجع الجرسون بموسى مستعملة عارية فتقبلتها شاكرا ثم أودعتها جيبى. انفصلت عن البار بشىء من المشقة ثم مضيت نحو الباب الخارجى. مترنحا.. يائسا.. متعجلا. عبرت الطريق وبودى لو أركض ركضا.

كنت يائسا .. يائسا .. يائسا ..



٥

عامر وجدى

تنغص على صفوى بالأحداث التى ألمت بالبنسيون . لقد ركنت إليه لأنعم بشىء من الهدوء الضرورى لشيخوختى . وبشىء من عزاء الذكريات عن الخيبة المريرة التى منيت بها فى ختام حياتى العملية . لم يجر لى فى الظن أنه سينقلب ميدانا لمعارك وحشية قدر لها أن تنتهى بجريمة قتل دامية .

ودب فى بعض نشاط فغادرت حجرتى منضما إلى ماريانا وطلبة مرزوق بمجلسنا المعهود بالمدخل . وددت أن أرى زهرة ولكن اضطراب ماريانا وتهجم طلبة منعانى من استدعائها إلى جو سيضيق حتما بأحزانها ولن يوليها الاحترام اللائق . وعلمت أن حسنى علام غادر البنسيون فى ميعاده المألوف تقريبا . إنه انفعل ساعة بالخبر الدامى ثم مضى إلى حال سبيله ، أما منصور باهى فقد تأخر به النوم على خلاف عادته . وقالت ماريانا بتأفف ..

ـــ ها هو اليوم الأخير من السنة ، ختمها أسوأ ختام ، فماذا يخبىء لنا العام الجديد ؟!

فتساءل طلبة مرزوق فى ضجر عصبى :

ـــ أى متاعب ستلاحقنا هنا !

فتمتمت بصوت واهن :

ـــ ما دمنا أبرياء ..

فقاطعنى بحدة :

ـــ أنت متحصن بشيخوختك فلن يضيرك شىء ..

وترامى إلينا صوت باب منصور وهو يفتح . ذهب إلى الحمام . رجع إلى حجرته بعد نصف ساعة .

وما لبث أن ظهر من وراء البارفان ، مرتديا بدلته ومعطفه ، ولكنه طالعنا بوجه شديد الشحوب ونظرة معتمة وقسمات متصلبة . أخبرته المدام بأن إفطاره معد ولكنه رفضه بهزة من رأسه دون أن ينبس . أقلقنا منظرة بلا شك ، وكانت المدام أسرعنا فى الإفصاح عن ذاك القلق فقالت له :

ـــ اجلس يا مسيو منصور .. أأنت على ما يرام ؟

قال دون أن يجلس :

ـــ على خير ما يرام ، لقد نمت أكثر من المعتاد ، هذا كل ما هنالك !

فقالت وهى تشير إلى الجريدة المطروحة على الكنبة :

ـــ أما سمعت الخبر ؟

لم يبد أى اهتمام بشىء فقالت :

ـــ سرحان البحيرى .. وجد قتيلا فى طريق البالما ..

نظر إليها طويلا . لم يدهش ، لم ينزعج ، ولكنه ظل ينظر فى عينيها .

كأنما لم يسمع قولها ، أو لم يفهمه ، أو أنه يعانى مرضا أخطر مما نتصور . ودعته ماريانا إلى قراءة الخبر فى الجريدة فألقى عليه نظرة متمهلة هادئة ، وأبصارنا مركزة عليه ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

ــ أجل .. وجد قتيلا ..

قلت له باشفاق :

ــ إنك متعب فلتجلس...

فقال ببرود أو لعله ذهول :

ــ إنى بخير ..

فقالت ماريانا :

ــ نحن كما ترى فى غاية من الاضطراب ..

نقل بصره بين وجوهنا ثم سأل :

ــ لم ؟!

ــ نتوقع أن يجيء البوليس فيقلق راحتنا ..

ــ لن يجيء ..

فقال طلبة مرزوق :

ــ ولكن البوليس كما تعلم ..

فقاطعه قائلا بهدوء :

ــ أنا قاتل سرحان البحيرى ..!

ومضى نحو الباب قبل أن نفقه قوله ففتحه ثم نظر إلينا قائلا :

ــ سأذهب إلى البوليس بنفسى ..

وأغلق الباب وراءه .. تبادلنا نظرات ذاهلة ، مضى وقت ونحن نترامق فى ذهول وصمت . ثم هتفت ماريانا بخوف :

— إنه مجنون !

فقلت :

— بل إنه مريض ..

تفكر طلبة مليا ثم قال :

— ولعله هو القاتل !

فصاحت ماريانا :

— ذلك الشاب المهذب الخجول !

وقلت بإشفاق :

— إنه مريض بلا شك .

وتساءلت ماريانا :

— و لم يقتله ؟

فتساءل طلبة بدوره :

— و لمْ يعترف بأنه القاتل ؟

قالت ماريانا :

— لن أنسى صورة وجهه ، لقد مس عقله شيء ..

فقال طلبة مؤيدا رأيه :

— لقد كان آخر المتشاجرين معه ..

فقلت معترضا :

ـــ ما من أحد إلا وتشاجر معه ..

فأشار ناحية حجرة زهرة وقال :

ـــ هناك يستقر السبب ..

فقلت محتدا :

ـــ ولكنه الوحيد الذى لم يبد نحوها أى اهتمام خاص .

ـــ لا يعنى ذاك أنه لم يحبها ، أو أنه لم يرغب فى الانتقام من غريمه فيها ..

ـــ يا سيدى لقد تركها سرحان وذهب ..

ـــ ولكنه أخذ قلبها ، كما أخذ شرفها !

ـــ صه .. لا تفترى على الناس بغير يقين ..

وتساءلت ماريانا :

ـــ ترى هل يذهب حقا إلى البوليس ؟

وتواصل الحديث محموما حتى أرهقنا ، وعند ذاك هتفت :

ـــ فلنكف .. كفاية .. ولنسلم إلى المقادر ..

* * *

﴿ ... أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور * ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون * ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير ﴾

سرعان ما تعبت عيناى من القراءة . غادرت الحجرة إلى المدخل والساعة تدق الرابعة مساء . وجدت ماريانا غارقة فى الكتابة فراحت تقول لى :

— أول ليلة رأس السنة تمر بى وكأنها ليلة مأتم .

فقال طلبة مرزوق بحزم :

— إياكم والعودة إلى حديث الهم والكدر .

فقالت المدام بغضب :

— لقد سقط النحس على البنسيون ، إنى واثقة من ذلك ، وعلى زهرة أن تذهب ، فلتبحث عن رزقها فى مكان آخر .

أصابت غضبتها قلبى فقلت بإشفاق :

— إنها بريئة يا ماريانا ، سيئة الحظ ، وقد لجأت إليك فى محنتها .

— أصبحت أتشاءم منها .

فرقع طلبة بأصابعه كأنما قد تلقى فكرة جديدة سعيدة وقال :

— ماذا يمنعنا من الاحتفال بليلة رأس السنة ؟

فقلت بدهشة :

— ماذا يمنعنا !.. يا له من قول مضحك .

تجاهلنى .. وقال لماريانا :

— استعدى يا عزيزتى .. سنسهر معا كما اتفقنا !

تشكت المرأة قائلة :

— أعصابى .. أعصابى يا مسيو طلبة .

— لذلك أدعوك للسهر .

تغير الجو . بالقياس إليهما على الأقل . وراحا يناقشان الاقتراح بجدية . وجاء آنذاك حسنى علام من الخارج فأعلن على عزمه على الانتقال من البنسيون إلى مقام جديد . وقصت عليه المدام قصة منصور باهي الغريبة فتلقاها بدهشة كبيرة وناقشها وقتا ، ثم هز كتفيه العريضين كأنما ينفضهما عنه ، وراح يعد حقيبته ، ثم ودعنا وانصرف .

وتمتمت عقب انصرافه بحزن :

— عدنا وحدنا كما كنا ..

فقال طلبة بمرح :

— لنحمد الله على ذلك ..

انبعثت فيهما روح نشاط دفاق جرفت من قلبيهما شوائب القلق والكآبة . ازينت ماريانا كالأيام الخالية .

ارتدت فستان سهرة كحلي اللون فأضفى على بياض بشرتها نصاعة وبهاء ، ومعطفا أسود ذا طوق من الفرو الأصيل . وانتعلت حذاء مذهبا . وتحلت بقرط من الماس وعقد من اللؤلؤ . ارتدت غانية جذابة نبيلة وتوارت أمارات الكبر تحت قناع المساحيق . ترامقنا هنيهة وهي واقفة وسط المدخل وقفة استعراضية . ثم ضحكت بفرح بنت مراهقة ومضت هي تقول لطلبة :

— سأنتظرك عند الحلاق .

* * *

وجدت نفسى وحيدا ، لا أنيس لى إلا عواء ريح عاتية . ناديت زهرة . ثلاث مرات ناديتها قبل أن تظهر من وراء البارفان . وقفت تعلوها مظاهر الحزن والهزيمة والانكسار حتى خيل إلى أنها ضؤلت واحدودبت .

أشرت إلى الكنبة فدلفت إليها فى صمت ثم استقرت تحت تمثال العذراء . شبكت ذراعيها على صدرها ورنت إلى الأرض . عصر قلبى عطف وحنان حتى امتلأت قنوات عينى بدمع غدة مضمحلة لم يعد من الميسور لها أن تروح عن صاحبها بالبكاء . قلت :

ـــ لماذا تبقين وحدك كأنك بلا صديق ؟، أصغى إلى ، أنا رجل عجوز جدا بل عجوز كما ترين ، وقد تعثر تيار حياتى ثلاث مرات أو أربع ، تمنيت عند كل مرة أن أقتل نفسى ، وكنت أهتف من قلب مكلوم « لقد انتهى كل شىء » ، وها أنت ترينني على رأس عمر مديد لا يظفر به إلا الأقلون ، ولم يبق من عثرات اليأس إلا ذكريات غامضة بلا طعم ولا رائحة ولا معنى كأنما كانت من تجارب شخص آخر !

استقبلت كلماتى بلا حماس وبلا فتور . قلت :

ـــ لنترك أحزاننا لزمن يبرى الحديد ويفتت الحجر ، ولكن عليك أن تفكرى فى مستقبلك ، الحق يا زهرة أن المرأة لم تعد تريدك ..

فبادرتنى بشدة :

ـــ لا يهمنى ذلك ..

ـــ ماذا أعددت للمستقبل ؟



قالت وهي ترنو إلى الأرض : كالماضي تماما حتى أحقق ما أريد !

قالت وهى ترنو إلى الأرض ما تزال :

ـــ كالماضى تماما حتى أحقق ما أريد ..

تنسمت فى قولها عزيمة ردت إلى الروح فقلت :

ـــ حسن أن تواصلي تعليمك وأن تتدربى على مهنة ، ولكن كيف توفرين لنفسك الأمن والرزق ؟

قالت بثقة وتحد :

ـــ فى كل خطوة أجد من يعرض على عملا ..

قلت برقة أستعين بها على إقناعها :

ـــ والقرية .. ألا تفكرين فى العودة إليها ؟

ـــ كلا .. إنهم يسيئون بى الظن .

فقلت فيما يشبه التوسل :

ـــ ومحمود أبو العباس ؟.. له عيوبه بلا شك ولكنك قوية وستستطيعين أن تقوميه وأن تدفعيه إلى ما هو خير .

ـــ ليس دونهم سوء ظن بى ..

تنهدت فى تسليم أسيف وقلت :

ـــ أود أن أطمئن عليك يا زهرة ، إنى أحبك . هو حب متبادل فيما أعتقد . وباسمه سأرجوك أن تقصدينى عند الشدة ..

رمقتنى بامتنان وحب فقلت :

ـــ مهما يكن من مرارة التجربة الماضية فلن تغير مرارتها من طبيعة الأشياء ، ستظل غايتك المنشودة هى العثور على ابن الحلال !

أحنت رأسها وهى تتنهد ..

ـــ وستجدين حتما ابن الحلال الجدير بك .. إنه موجود الآن فى مكان ما ولعله يتحين اللحظة المناسبة !

غمغمت بكلام لم أتبينه ولكن حدثنى قلبى بأنه كلام طيب ، فقلت :

ـــ ما تزال الدنيا بخير ، وستكون كذلك إلى الأبد !

لبثنا جالسين نراوح بين الصمت والمناجاة . وبعد وقت غير قصير استأذنت فى الانصراف ثم ذهبت إلى حجرتها .

مكثت وحدى طويلا حتى استيقظت ـــ تسلل النوم إلىّ وأنا لا أدرى ـــ على صوت الباب وهو يفتح .

دخلت ماريانا وطلبة مرزوق ثملين وهما يغنيان ، وصاح بى الرجل :

ـــ ماذا أبقاك هنا أيها العجوز ؟

تثاءبت فى ذهول وأنا أتساءل :

ـــ كم الساعة ؟

فأجابت ماريانا بلسان مخمور :

ـــ مضت ساعتان من العام الجديد .

وإذا بالرجل يشدها إلى حجرته وهو يقبلها فتطاوعه بعد تمنع لاخطورة له ، ثم أغلق الباب وراءهما . جعلت أنظر إلى الباب المغلق وكأننى فى حلم !

* * *

جمعتنا مائدة الإفطار صباحا وكنا وحدنا . لم تظهر ماريانا على حين ذهبت زهرة بعد إعداد المائدة .

نظرت إليه فوجدته مريضا أو كالمريض . قلت له مداعبا :

ـــ صباحية مباركة !

تجاهلني مليا ، ثم تمتم :

ـــ يا لك من نحس !

رفعت إليه عيني مستطلعا فضحك رغما منه وقال :

ـــ كان فشلا مزريا ومضحكا معا .

تساءلت متغابيا :

ـــ عم تتحدث ؟

ـــ إنك تعرف تماما عما أتحدث يا ثعلب !

ـــ ماريانا ؟.

غلبة الضحك مرة أخرى ثم قال :

ـــ حاولنا المستحيل ، فعلنا كل ما يمكن تخيله ، ولكن بلا فائدة ، ولما تجردت من ملابسها تبدت كمومياء من شمع مذاب فقلت لنفسي يا للتعاسة !

ـــ لقد جننت !

ـــ وإذا بآلام الكلى تنتابها !، تصور ، وبكت ، واتهمتني بأنني أمثل بها !

* * *

تبعني إلى حجرتي بعد الإفطار . جلس على كرسي أمامي مباشرة وهو يقول :

ـــ يخيل إلى أنني سأسافر إلى الكويت قريبا ، أفتاني المرحوم بذلك .

ـــ المرحوم ؟

ـــ سرحان البحيري .

وضحك ضحكة قصيرة ثم قال بلا مناسبة ظاهرة على الأقل :

ـــ أراد أن يقنعني بالثورة بمنطق غريب .

نظرت إليه متسائلا فقال :

ـــ أكد لي أنه لا بديل للثورة إلا واحد من اثنين .. الشيوعيين أو الإخوان !. فظن أنه دفعني إلى ركن مسدود ..

فقلت بإيمان :

ـــ ولكن ذلك هو الحق !

ضحك ساخرا ثم قال :

ـــ بل يوجد بديل ثالث !

ـــ ما هو ؟

ـــ أمريكا !

هتفت بغيظ :

ـــ أمريكا تحكمنا ؟

فقال بهدوء حالم :

ـــ عن طريق يمينيين معقولين ، لم لا ؟

ضقت بأحلامه فقلت :

ــ اذهب إلى الكويت قبل أن تجن !

* * *

ها هى الصحف تحمل إلينا أنباء الجريمة. إنها تترادف غريبة ومتناقضة. لقد اعترف منصور باهى بالقتل ولكنه لم يقنع أحدا بالباعث عليه. قال إنه قتل سرحان البحيرى لأنه ــ فى نظره ــ يستحق القتل. ولماذا يستحق سرحان البحيرى القتل؟. لصفات وتصرفات هى مرذولة فى ذاتها ولكنها ليست بقاصرة عليه، فلم اختاره بالذات؟. بمحض الصدفة وكان من المحتمل أن يختار غيره. هكذا أجاب. منذا الذى يقتنع بذلك الكلام؟. أيكون الفتى مجنونا؟! هل يدعى الجنون؟.

وإذا بتقرير الطبيب الشرعى يؤكد أن الوفاة نتجت عن قطع شرايين رسغ اليد اليسرى بموسى حلاقة ، وليس بضرب الحذاء كما اعترف القاتل ، وبذلك رجح أن تكون الوفاة نتيجة انتحار لا قتل ..

وأخيرا اكتشفت العلاقة بين القتيل وبين جريمة تهريب الغزل وبذلك توكد الانتحار .

وتساءلنا عن العقوبة التى يستحقها منصور باهى . أجل .. ستكون حتما عقوبة طفيفة ، وسوف يستأنف حياته ولكن بأى قلب وبأى عقل ؟. وقد قلت بحزن :

ــ إنه فتى رائع ولكنه يعانى داء خفيفا ، عليه أن يبرأ منه .

* * *

ها هى زهرة كما رأيتها أول مرة لولا مسحة من الحزن . أنضجتها الأيام الأخيرة أكثر مما أنضجتها أعوام العمر السابقة جميعا . تناولت الفنجال من يدها وأنا أدارى انقباضى بابتسامة .

قالت بصوت طبيعى :

ــ سأذهب صباح الغد ..

كنت حاولت إثناء ماريانا عن رأيها ولكنها أصرت عليه بعناد . ومن الناحية الأخرى صارحتنى زهرة بأنها لن تقبل البقاء حتى لو عدلت المدام عن رأيها .

وعادت تقول بثقة :

ــ سأكون أحسن مما كنت هنا .

فقلت بحرارة :

ــ حمدا لله .

فافتر ثغرها عن ابتسامة حنون وهى تقول .

ــ ولن أنساك ما حييت أبدا ..

أشرت إليها أن تقرب وجهها منى ، ثم قبلت خديها بامتنان وأنا أقول :

ــ أشكرك يا زهرة ..

ثم همست فى أذنها :

ــ ثقى من أن وقتك لم يضع سدى ، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود ..

وكعادتى لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة الرحمن فرحت أتلو : ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

« تمت »

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	الحادية عشرة	١٩٨٥
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	الحادية عشرة	١٩٨٥
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثالثة عشرة	١٩٨٧
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	الحادية عشرة	١٩٨٥
السراب	رواية	١٩٤٨	الثالثة عشرة	١٩٨٧
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الخامسة عشرة	١٩٨٧
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثالثة عشرة	١٩٨٦
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الرابعة عشرة	١٩٨٧
السكرية	رواية	١٩٥٧	الثالثة عشرة	١٩٨٧
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	التاسعة	١٩٨٥
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	السادسة	١٩٨٧
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيئ السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الثامنة	١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السابعة	١٩٨٧
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الأسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	١٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	١٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	١٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	١٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	١٩٨٧
ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
الباقي من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السري	مجموعة	١٩٨٤		
العائش في الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧		

تحت الطبع

قشتمر	رواية
الفجر الكاذب	مجموعة

رقم الإيداع ٢٥٦٥
الترقيم الدولى ١ ــ ٢٢١ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن